رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

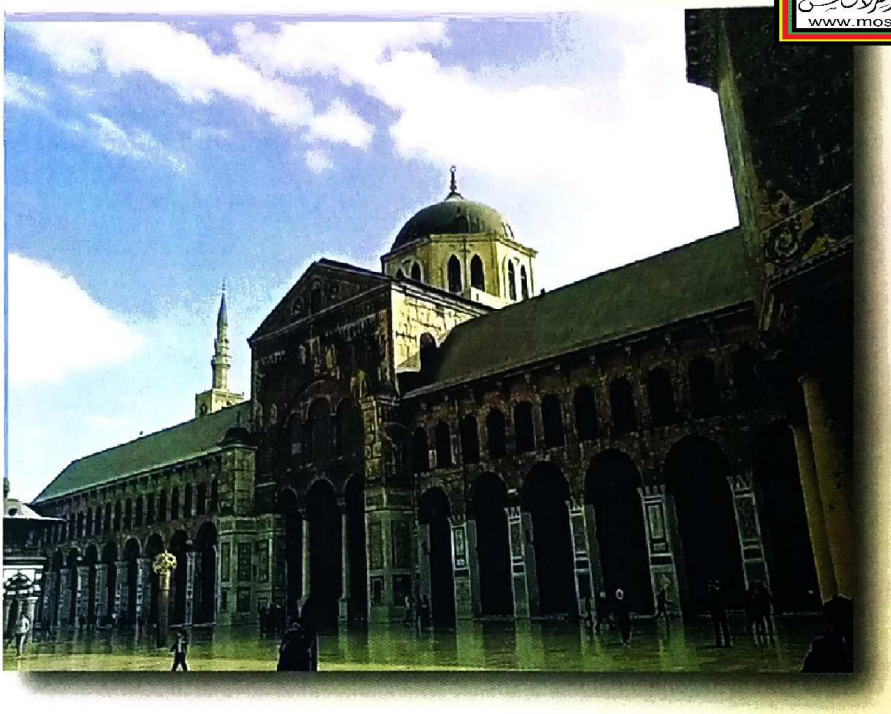

د. حليم خليف الكاني

مختصر تاريخ الدولة الأمويّة

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مختصر
تاريخ الدولة الأموية

مختصر تاريخ الدولة الأموية

الدكتور حليم خليف الكاني

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية (٢٠١٧/١٠/٥٣٣٩)

ISBN 978-9957-698-46-1

الطبعة الأولى ٢٠١٨

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه

ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر بموجب عقد

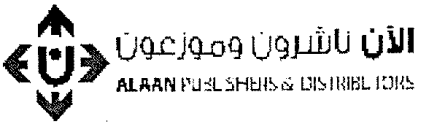

المدير العام: جعفر العقيلي

ش. الملكة رانيا، عمارة البيجاوي ط٣، بجانب صحيفة «الرأي»

نقال: ٧٧٦٧٢٤٣٦٦ ـ ٧٩٧١٦٢٧٢٠ (٠٠٩٦٢)،

تلفاكس ٦٥٦٢٠٧٢٢ (٠٠٩٦٢) ص.ب ٧١٣٦٨٠ عمّان ١١١٧١ الأردن

alaan.publish@gmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مختصر

تاريخ الدولة الأموية

إعداد وتحرير
الدكتور حليم خليف الكاني

٢٠١٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة

الدولة الأموية هي الدولة التي أسّسها والي الشام معاوية بن أبي سفيان في عام ٤١ للهجرة، والتي أصبحت بعد ذلك دولة الخلافة الإسلامية بعد تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - عن الخلافة، لتصبح دمشق عاصمة الخلافة الإسلاميّة الجديدة، وصار حُكّام دولة بني أمية، وفروعها يتوارثون حُكم الدولة الأموية بينهم، واستمرّ الحُكم الأموي ما يقارب ٩١ عامًا، وقد شَهدت توسعًا جغرافيًا كبيراً وصل إلى أوروبا، وأطراف كبيرة من قارة آسيا. نسب الأمويين يعود نسب الأمويين إلى أمية بن عبد شمس بن مُرة، ويعدّ الأمويون من قبائل قريش الكبرى، وهم من أقارب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويعد بنو أمية من سادة قريش، وزعمائها، ومن المتمسّكين بآرائهم، وتاريخهم، وهذا ما أدّى إلى تأخر إسلام أغلبهم، ويعد الصحابي الجليل والخليفة الثالث للمسلمين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من الأمويين، كما أنّ أبا سفيان يعدّ من أشهر سادة بني أمية، ووالد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان. إنجازات الدولة الأموية ازدهر العالم الإسلامي في عهد الدولة الأموية، وهذا ما ظهر في العديد من المجالات الأدبية، والثقافية، والعلمية، وغيرهم، ممّا أدّى إلى ظهور العديد من العلماء والمفكّرين في المدن الإسلامية، مثل: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ودمشق، والإسكندرية، وغيرها. من أبرز العلوم التي ظهرت في عهد الدولة الأموية العلوم اللغوية، فقد شهدت تطوراً في دراسة اللغة العربية، وتوسعًا في الدراسات، والأبحاث التي اهتمت بعلم النحو العربي، وخصوصًا عند اتساع رقعة

الدولة الإسلامية، وإسلام العديد من الأشخاص غير العرب، وهذا ما دفع علماء اللغة العربية للاهتمام بتثبيت قواعد اللغة العربية، وكل ما اتّصل بها من أدبٍ عربيّ في مجال الكتابة النثرية، والشعرية، ومن أهم علماء اللغة العربية في العصر الأموي: الخليل بن أحمد الفراهيدي (مؤسس علم عَروض الشعر العربي). اهتم علماء الفقه الإسلامي والحديث الشريف بتدوين الأحاديث النبوية الشريفة، وتأليف المؤلفات التي تهتم بعلم الحديث، حتى يتمكن المسلمون من متابعتها، ومن أشهر علماء الحديث في العصر الأموي: مالك بن أنس، والذي أخذ علم الحديث عن الصحابة الثقات، مثل: أبو هريرة – رضي الله عنه –. اهتمّ معظم العلماء العرب في عهد الدولة الأموية بدراسة العلوم المختلفة، فدرسوا الطب، والكيمياء، والفيزياء، وألّفوا مجموعة من المؤلفات المشهورة حوله هذه العلوم، كما أنّهم ساهموا في تقديم العديد من الدراسات، والأبحاث المهمة، والتي انتشرت في كافة أنحاء العالم. نهاية حُكم الدولة الأموية بعد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك جاء العديد من الخلفاء الذين عانت في عهودهم الدولة الأموية، فتركوا الحُكم الإسلامي، واهتموا بالترف، وصرف المال، فانتشر الفساد الإداري، وعمت المشكلات في المجتمع الإسلامي، وهكذا ظلّت الدولة الأموية تُعاني من التراجع، والتأخر مما انعكس سلبًا على الدولة الإسلامية كاملةً، لينتهي عهد الحُكم الأموي في عام ٧٥٠ للهجرة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

الدولة والخلافة الأموية

الدولة الأموية أو الخِلافَةُ الأُمَوِيَّةُ أو دولة بني أمية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦٢ - ٧٥٠ م)

هي ثاني خلافة في تاريخ الإسلام، وأكبر دولة في تاريخ الإسلام، وواحدةٌ من أكبر الدُّوَلِ الحاكِمة في التاريخ. كان بنو أمية أولى الأسر المسلمة الحاكمة، إذ حكموا من سنة ٤١ هـ (٦٦٢ م) إلى ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق. بلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك، إذ امتدت حدودها من أطراف الصين شرقًا حتى جنوب فرنسا غربًا، وتمكنت من فتح إفريقية والمغرب والأندلسوجنوب الغال والسند وما وراء النهر.

يرجع الأمويون في نسبهم إلى أميَّة بن عبد شمس من قبيلة قريش. وكان لهم دورٌ هام في عهد الجاهلية وخلال العهد الإسلامي. أسلَم معاوية بن أبي سفيان في عهد الرسول محمد، وتأسست الدولة الأموية على يده، وكان قبلاً واليًا على الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم نشب نزاع بينه وبين علي بن أبي طالب بعد فتنة مقتل عثمان، حتى تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بعد مقتل أبيه، فتأسست الدولة بذلك. أخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحكم والإدارة إذ جعل الخلافة وراثيَّة عندما عهد لابنه يزيد بولاية العهد، واتخذ عرشًا وحراسًا وأحاط نفسه بأبَّهة الملك، وبنى له مقصورة خاصَّة في المسجد، كما أنشأ ديوان الخاتم ونظام البريد. بعد وفاة يزيد اضطربت الأمور، فطالب ابن الزبيربالخلافة، ثم تمكن عبد الملك بن مروان بن الحكم من هزمه وقتله في مكة سنة ٧٣ هـ، فاستقرت الدولة مجدداً.

جرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك، فاستكمل فتح المغرب، وفتحت الأندلس بكاملها، وفتحت السند بقيادة محمد بن القاسم

الثقفي وبلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم. خلفه سليمان بن عبد الملك الذي توفي مرابطًا في مرج دابق لإدارة حصار القسطنطينية، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي يعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرة. وخلفه بعده ابن عمه يزيد، ثم هشام، الذي فتح في عهده جنوب فرنسا، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار. وبعد موته دخلت الدولة في حالة من الاضطراب الشديد، حتى سيطر مروان بن محمد على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع العباسيين في معركة الزاب فهزم وقتل، وكانت نهاية الدولة الأموية.

شهد عهد الدولة الأموية ثورات وفتنًا كثيرة، وكان منفذوا أغلب هذه الثورات إما الخوارج أو الشيعة. من أبرز تلك الثورات ثورة الحسين بن علي على يزيد بن معاوية، عندما طالب بالخلافة، فالتقت معه جيوش الأمويين في معركة كربلاء التي انتهت بمقتله. وقامت بعدها ثورات شيعية كثيرة للثأر له، منها ثورة التوابين وثورة المختار الثقفي، ثم هدأوا بعد قمعهما أكثر من نصف قرن حتى ثورة زيد بن علي. كما ثار الخوارج مراراً وتكراراً، ولم يهدؤوا إلا لقرابة عشرين عامًا بين أواسط عهد عبد الملك وبداية عهد يزيد. وقد كان لأشهر ولاة الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي دور كبير في إخماد هذه الثورات وتهدئتها خلال أواخر القرن الأول الهجري، خصوصًا وأنه كان والي العراق والمشرق، التي كانت - وخصوصًا مدينة الكوفة - ألد أعداء الحكم الأموي، فيما كانت الشام تعد حليفة الأمويين وعاصمتهم. من أشرس الثورات التي قامت على الدولة الأموية أيضًا ثورتا عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث.

في أواسط عهد الخليفة عثمان بن عفان اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية، وأخذت بالانتشار شيئًا فشيئًا ثمَّ أدت في شهر ذي الحجة من عام ٣٥ هـ (يونيو عام ٦٥٦ م) إلى مقتله. ولكن الفتنة لم تنته بذلك، فجاءَ عهد علي بن أبي طالب مليئًا بالقلاقل والنزاعات التي فشل في إنهاء مُعظمها.

وفي النهاية اتفق في شهر رمضان من عام ٤٠ هـ (ديسمبر عام ٦٦٠ م) ثلاثة من الخوارج - هُم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله التميميّ وعمرو بن بكر التميميّ السعديّ - على أن يَقتل الأول منهم عليًا بن أبي طالب والثاني معاوية بن أبي سفيان - والي الشام آنذاك - والثالث عمرو بن العاص - والي مصر آنذاك - معًا في نفس الليلة، فنجح الأول في مهمّته، وأما الاثنان الآخران ففشلا وقتلا. كان معاوية واليًا على الشام منذ سنة ١٨ هـ بعد أن عيَّنه كذلك عمر بن الخطاب،وعلى الرُّغم من حصول بعض الخلافات بينه وبين عليّ وخوضه معركة صفين معه، فقد أصرَّ على عدم ترك ولايته، وظلَّ والي الشام حتى مقتل علي.

بعد مقتل علي مُباشرة بايع أهل العراق ابنه الحسن على الخلافة، فيما بايع أهل الشام بدورهم معاوية بن أبي سفيان. وهُنا حشد معاوية جيوشه وسار إلى الحسن، غير أن الحسن رفضَ القتال، وراسل معاوية للصُّلح، فسر هذا سروراً كبيراً بالعرض ووافق عليه، وعُقد الصلح في شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م)، وهكذا تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وسُمّي ذلك العام بعام الجماعة لأن المسلمين اتفقوا فيه على خليفة لهم بعد خلاف طويل دام سنوات.

كانت حركة الفتوحات الإسلامية قد توقّفت تماماً منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ، وظلّت متوقفة طوال عهد علي بن أبي طالب، حيث كانت الدولة منشغلة بنزاعاتها الداخلية. لكن بعد الاجتماع مجدداً على خلافة معاوية عادت الفتوحات من جديد، وقد ركّزت الفتوحات في عهده على الحرب مع البيزنطيين (في شمال أفريقيا والجبهات البحرية) وفتوحات المشرق (في سجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر). توقّفت الفتوحات في أرض الأناضول منذ فترة طويلة قبل حكم معاوية عند سفوح جبال طوروس قربَ مدينة مرسين، وهُناك أقام كل من المسلمين والروم على جانبي الحدود حصونًا وقلاعًا كثيرة، وعلى الرُّغم من

الغزوات الكثيرة التي شنّها المسلمون في عهد معاوية (خصوصاً الصوائف والشواتي) فلم تتغير حدود الدولتين كثيراً. لكن من أبرز أحداث عهده تمكّن المسلمين من استعادة أرمينيا (والتي كانوا قد فتحوها سابقاً، لكنهم خسروها في أيام الفتنة)، بالإضافة إلى أن بعض غزوات الصوائف والشواتي التي تمكّنت من التوغل في الأناضول حتى عمورية (وهي قريبة من مدينة أنقرة).

كما أرسل معاوية سنة ٤٩ هـ (وقيل أيضاً سنة ٥٠ هـ، أي ٦٦٩ أو ٦٧٠ م) حملته الأولى لفتح القسطنطينية، وكانت بقيادة سفيان بن عوف الأزديّ، لكنها فشلت وحل الشتاء وصعبت ظروف القتال، وفي آخر الأمر عادت خاسرة إلى الشام، وقُتل فيها الكثير من المسلمين بينهم الصحابيّ أبوأيوب الأنصاري. ثم أرسل حملته الثانية بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م)، وتمكّن الأسطول في طريقه من فتح جزيرتي أرواد ورودس الواقعتين على ساحل آسيا الغربيّ، وقد أقام جيش المسلمين فيهما سبع سنين وجعلهما قاعدة لحصار القسطنطينية منها، ولذلك فقد سُميت أيضاً بـ«حرب السنين السبعة»، وكان المسلمون يُحاصرون المدينة خلال الصيف، ثم يرحلون في الشتاء، غير أن الروم صمدوا، واضطرّ معاوية بن أبي سفيان في النهاية إلى سحب الأسطول وإعادته إلى قواعده دون فتح القسطنطينية في سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م).

وضع معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع قائداً على جيش المغرب، وكان هو الذي قادَ العديد من الحملات في عهد معاوية في تلك البلاد. بنى عقبة بإذن من معاوية مدينة القيروان بين سنتي ٥٠ و٥٥ هـ لتُصبح مركزاً للمسلمين تنطلق منه قواتهم للغزوات، وذلك بعد أن توسَّعت بلادهم وأصبحت أرض مصر بعيدة، كما عقدَ - هو وأبو المهاجر دينار من بعده - الكثير من الصُّلوح مع أمازيغ المغرب، وأقاما معهم علاقات طيّبة، ونجحا في إدخال الكثير من قبائلهم في الإسلام. وعسكرياً، تتابعت فتوحات المغرب سيرها في عهد معاوية حتى فُتحَ أغلب المغرب الأوسط، ووصلت جيوش المسلمين إلى تلمسان.

وأما في جبهة الشرق، فقد فتحَ المسلمون سجستان فقوهستان في سنتي ٤٣ ـ ٤٥ هـ، وغزو بلاد اللان وما وراء النهر والسند وجبال الغور، غير أن أهالي هذه المناطق كانوا يَنكثون العهد مرة بعد أخرى، فعاد المسلمون لفتحها مجدداً مراراً وتكراراً.

كان من أبرز التغيرات على الصَّعيد السياسيّ في عهد معاوية بن أبي سفيان، أنه نقلَ عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق (بعد أن كان علي قد نقلها من المدينة إلى الكوفة)، وقد أثار هذا سخطَ بعض أهل العراق والحجاز. كما شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومُتابعة الفتوحات بعد توقف طويل.

وقد ألغى معاوية في عهده نظام مجلس الشورى، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلَّ يَستشير أصحابه ومن حوله دائماً في أغلب أفعاله. وقد أنشأ نظاماً للشرطة لحماية وحراسته يُعيِّنه بنفسه، كما طوَّر ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه أكثر هو ديوان الخاتم.

انتقال الحكم إلى المروانيين

قامت – داخلياً – الكثير من القلاقل في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث حاولَ الخوارج أن يثوروا من جديد على الخلافة، ولذلك فقد قاتلهم معاوية، وبحلول عام ٤٥ هـ نجحَ في إخماد ثورتهم وعادَ الاستقرار الداخليُّ إلى الدولة، وظلَّ الوضع كذلك حتى وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هـ (شهر أبريل سنة ٦٨٠ م). وكان معاوية قد جعل أهل الشام والمدينة يُبايعون ابنه يزيد منذ سنة ٥٠ هـ، فكان ذلك، وأصبح يزيد وليَّ العهد، وبما أنه كان بعيداً عن دمشق عند وفاة والده فقد أخذ البيعة له الضحاك بن قيس، وعندما عاد بدأت الوفود بالقدوم لتعزيته بوفاة أبيه وتهنئته بالخلافة.

أعاد يزيد تعيين عقبة بن نافع قائداً لجيوش المغرب، فقادَ هذا حملته الكبيرة سنة ٦٢ هـ التي عبرَ فيها ساحل شمال أفريقيا بأكمله حتى بلغ مدينة طنجة على سواحلالمحيط الأطلسي، وهُناك قال مقولته الشهيرة: «اللهم اشهد أني قد بلغت المجهول، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبَد أحدٌ دونك».

لكن عندما كان عائداً من حملته هذه لم يَكن معه سوى جيش صغير من ٣٠٠ مقاتل بعد أن سرَّحَ معظم جيشه وتركه يَسير أمامه على مسافة بعيدة، وعلمَ بذلك الرُّوم، فتحالفوا مع الأمير الأمازيغي كسيلة بن كمرم (الذي كان قد أسلم، لكنه ضغن لعقبة لأنه كان قد أهانه قبل ذلك) ونصبوا كميناً لجيش المسلمين، وقُتلَ في الكمين عقبة بن نافع وكل من كانوا معه، كما قتلَ في الكمين قائد المغرب السَّابق أبو المهاجر دينار، وكان ذلك في عام ٦٣ هـ.

وإثرَ اندحار جيش المسلمين فقد تمكّن كسيلة على رأس جيوش الأمازيغ من شقّ طريقه بسهولة واستعادة أرض إفريقية ومدينة القيروان، ومضى زمنٌ طويل قبل أن يَستعيد المسلمون هذه المناطق، واضطرُّوا على إثر ذلك إلى الانسحاب حتى إقليم برقة. كما شهدَ عهد يزيد بعض الفتوحات المحدودة في المشرق بخراسان وما وراء النهر.

لكن ظهرت مُشكلة جديدة مع بداية عهد يزيد، فقد كان من ضمن شروط تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أن يُصبح هو الخليفة بعد وفاة معاوية، غير أنه توفيَّ قبل معاوية بعشر سنوات، وعندما حدثَ ذلك اجتمع أهل الكوفة في بيت سليمان بن صرد الخزاعيّ، واتفقوا على مُراسلة أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب بالقدوم إليهم لمُبايعته على الخلافة. وقد ارتاب عبد الله بن عباس من هذه الدعوة، ونصح الحسين

بالحذر من أهل الكوفة وعدم الاستجابة له، غير أن عبد الله بن الزبير حثّه على الذهاب وأقنعه بالاستجابة إليهم، فاقتنع الحسين بذلك.

وكان الحسين قد رفضَ بيعة يزيد من قبل (وكان معارضاً لها منذ تعيينه ولياً للعهد)، وعندما جاءته رسائل أهل الكوفة أرسل ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستطلع الأوضاع، فبايعه هناك أكثر من ١٢٬٠٠٠ من أهل المدينة، وعندما علمَ يزيد بذلك عزلَ النعمان بن بشير عن ولايتها وعيَّن مكانه عبيد الله بن زياد، فقبضَ هذا سريعاً على مسلم بعد أن تركه أهل الكوفة وانفضُّوا عنه وقتله. ووصلت هذه الأخبار إلى الحسين وهوَ في طريقه، لكن رجاله - وعددهم ٧٠ - أصرُّوا على مواصلة السير للثأر لمسلم، والتقى هؤلاء قربَ كربلاء بجيش يفوقهم عدداً بـ٥٠ ضعفاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعلى الرغم من عرض الحسين السلام فقد أصرَّ عمر على أن يُسلّم الحسين نفسه كأسير حرب أو أنه سيبدأ القتال، ورفضَ الحسين، فوقعت معركة كربلاء في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ (١٢ أكتوبر سنة ٦٨٠ م)، وقُتلَ الحسين وكل من كان معه،وكانت تلك بادرة لانقسامات كبيرة في الدولة الإسلامية ستدوم قروناً طويلة.

كان عهد يزيد بالإجمال مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، ولذلك فقد سُمي بـ«الفتنة الثانية»، وكان من أكبر هذه الفتن في عهده مقتل الحسين، ويَبقى حادث آخر إلى جانبها.[1]فعندما قُتلَ الحسين استغلَّ عبد الله بن الزبير الحدث ليُشهِّر بيزيد ويُحرض أهل الحجاز عليه، وبالفعل بايعه أهل الحجاز ومصر، وحاصروا بني أمية في المدينة بمنزل مروان بن الحكم، فغضب يزيد غضباً جماً وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة، وأمره بمحاصرتهم ثلاثة أيام، فإن أبوا إطلاق سراح بني أمية ومُبايعته فليقاتلهم. وعندما بلغَ المدينة دخلها من جهة تُسمَّى الحرة، وهناك التقى أهلها، لكنهم رفضوا مبايعة يزيد، وكانت موقعة الحرة سنة ٦١ هـ، وهُزمَ أهل المدينة

وقتل ٣٠٠ منهم، ودخل مسلم المدينة عنوة واستباحها وقتل الكثير من أهلها وأجبرهم على مُبايعة يزيد بالقوَّة.

وبعد هذه الأحداث سارَ مسلم نحو مكة للقضاء نهائيًا على ثورة ابن الزبير، وقد توفيَّ مسلم في الطريق إلى مكة، فأكمل قيادة الجيش «الحصين بن نُمير»، لكن عندَ وصوله وجدَ ابن الزبير ورجاله مُعتصمين في الكعبة أملاً في الحصول على الأمان نظراً إلى حرمتها. غير أن جيش يزيد نصبَ المنجنيقات حول الكعبة وأخذ بضربها، وكان ذلك في صيف عام ٦٤ هـ (٦٨٣ م)، لكن سُرعان ما وصلت أنباء وفاة الخليفة يزيد، فاضّطرب الجيش وعادَ إلى الشام تاركًا ابن الزبير دون قتله.

كان يُفتَرض أن يَرث معاوية بن يزيد الحُكم بعد أن عيَّنه والده وليًا للعهد قبل وفاته، لكنه تنازل عن الخلافة وقال أنه لا يُمكنه حمل عاتقها، وتوفيَّ بعد ذلك بأسابيع.

وهُنا تقدم شيخ بني أمية ووالي المدينة مروان بن الحكم وطالبَ بالخلافة لنفسه وبايعه أهل المدينة واليمن، غير أن ابن الزبير أعلنَ نفسه خليفة في الآن ذاته، وبايعه أهل العراق ومصر بل ومعظم أهل الشام، ومنهم الضحاك بن قيس الفهريّ، فسارَ إليه مروان والتقاه في معركة مرج راهط، وقُتل الضحاك في المعركة وبُويع مروان، وقد استعادَ أيضًا مصر دون قتال كثير، كما أنه قضى سريعًا على ثورة التوابين عندما واجه عبيد الله بن زياد بجيش قوامه ٦٠.٠٠٠ مقاتل الثائرين الـ٣.٠٠٠، غير أن مروان سُرعان ما توفيَّ في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) بعد حكم دامَ عشرة شهور. وقد تابع بعده ابنه عبد الملك، لكنه استلمَ الحكم وبلاد المسلمين مقسومة بين خمس دول، فإلى جانب الدولة الأموية في مصر والشام كانت هناك دولة ابن الزبير في الحجاز والعراق، كما نجحَ المختار الثقفي بعد ثورته في السَّيطرة على الكوفة، وسيطر بعض الخوارج بعد ثورتين على إقليمي الأهواز والنجدات. سُرعان ما قضى مصعب بن الزبير بجيشه على المختار الثقفي، والتحمَ عبد الملك بعد ذلك معه في «معركة دير الجاثليق» سنة ٧١ هـ

فاستعاد العراق، وفي آخر الأمر أرسلَ جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة سنة ٧٣ هـ فحاصرَ ابن الزبير هُناك في الكعبة، وضربَ الكعبة بالمنجنيقات كما حدثَ من قبل، فأصابت الحجارة ابن الزبير وصرعته. كوفئ الحجاج بأن أصبح والي العراق والمشرق، وهكذا استتبَّ الحكم أخيراً لخليفة واحد في البلاد بعد أن عصفَت الصراعات الداخلية بالدولة الأموية لعقد ونصفٍ تقريباً، وسُميت سنة ٧٣ هـ بـ«عام الجماعة الثاني»

عهد عبد الملك وأبنائه

لم تستبَّ الأمور تماماً في الدولة بسقوط الدولة الزبيرية، إذ ظلّت مشكلة الخوارج، الذين كلّف عبد الملك المهلب بن أبي صفرة الأزدي بقتالهم. وفي سنة ٧٦ هـ هاجمَ صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد الخارجي خيلاً لمحمَّد بن مروان (والي الجزيرة) وسرقاها، وكان معهم آنذاك ١٢٠ شخصاً بايعا شبيب على الخلافة من أهل البصرة بعد أن نادى بها لنفسه، وبعدها دخلَ في حرب طويلة مع والي العراق والمشرق - الحجاج بن يوسف - الذي سيَّر إليه جيوشاً ضخمة، وقيل أنه خاضَ مع شبيب ٨٣ معركة في ١٠٠ يوم، ولم يَربح منها كلها سوى واحدة. وفي آخر الأمر فرَّ شبيب من جيوش الحجاج، ولكنه سقطَ في نهر بينما كان يَعبر جسراً في الأهواز وغرق بسبب ثقل دروعه سنة ٧٣ هـ، وبعدها لم تقم للخوارج قائمة حتى عهد عمر بن عبد العزيز.

تسبَّبت النزاعات الداخلية في الدولة بشلّ حركة الفتوحات لعقد تقريباً، لكن عندما اتّحدت الدولة أخيراً من جديد في عام ٧٣ هـ (عام الجماعة الثاني) عادت الفتوحات من جديد. تولّى زهير بن قيس البلوي قيادة جبهة المغرب بعد موت عقبة بن نافع، وعزمَ على الثأر له، غير أنه لم يَستطع التحرك حتى عام ٦٩ هـ بسبب مشكلات الدولة

الداخلية،وحينها قادَ جيشه نحوَ المغرب واستعاد القيروان وقتل قائد الأمازيغ كسيلة في «معركة ممس»، لكنّه قتل بدوره في كمين بيزنطيٍّ خلال عودته سنة ٧١ هـ.

وبعد مقتل ابن الزبير عيَّن عبد الملك حسان بن النعمان مكان زهير وأعطاه جيشاً ضخماً من الشام ومصر قوامه ٤٠.٠٠٠ مقاتل، وتمكّن من القضاء على الوجود البيزنطيّ في شمال أفريقيا،[٥٥] كما دمّر مدينة قرطاجنة - أكبر مركز بيزنطي في المنطقة - بعد أن اقتتل فيها مع الروم والأمازيغ وأجبرهم على الهرب نحو صقلية والأندلس، لكنه مع ذلك هزم على يد الكاهنة التي كانت تقود الأمازيغ خلفاً لكسيلة، وبعدها عادَ الروم البيزنطيون إلى قرطاجنة وعاثوا فيها فساداً، ولكن عبد الملك لم يَستطع إمداده بجيش لمقاومتهم. وفي النهاية وصلَ المدد أخيراً فتوجَّه إلى قتال الأمازيغ سنة ٨٢ هـ وقتلَ كاهنتهم، ثم فتح فاس وقرطاجنة وجلّ المغرب، وبنى قربَ قرطاجنة مدينة تونس التي لا زالت قائمة إلى اليوم.

وأما على جبهة الشام والأناضول فقد اضطرَّ عبد الملك لمصالحة البيزنطيين ودفع مال لهم أثناء صراعه مع ابن الزبير لأنه لم يَكن يستطيع الدفاع ضد هجماتهم، لكن بعد انتهاء الصراع سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) كانت لعثمان بن الوليد موقعة كبيرة معهم في أرمينيا، حيث التقى ٦٠.٠٠٠ منهم بجيش قوامه ٤.٠٠٠، فهزمهم وقتل الكثير منهم، وتُعرف هذه الموقعة بـ«معركة سبياستوبولس»، وقد تبعها فتح مُجمَل أرمينيا وضمُّها إلى الدولة الأموية.

كانت هناك غزوات كثيرة في عهد عبد الملك لبلاد ما وراء النهر، لكنها لم تُفتَح، حيث كان المسلمون يغزونها ويغنمون منها ثمَّ يَنسحبون عائدين إلى معاقلهم، ومن أبرز غزواتهم غزوة بخارى سنة ٨٠ هـ. وقد كان من ملوك هذه الأرض الكبار ملك يُسمَّى «رتبيل» غزاه المسلمون مراراً وتكراراً، فغزاهم سنة ٧٩ هـ وقتل أميرهم «عبيد الله بن أبي بكرة»، فجهَّز الحجاج بن يوسف جيشاً كبيراً سُمي بـ«جيش

الطواويس» وأعطاه لعبد الرحمن ابن الأشعث ليغزو به رتبيل (على الرغم من البغض المتبادل الذي كان بين عبد الرحمن والحجاج)، فغزا ابن الأشعث رتبيل وفتح الكثير من أراضيه، لكنه أوقفَ القتال ولم يُكمل الفتوحات بعد ذلك، إنّما حرَّض جيشه على الحجاج وعلى خلعه بل وخلع الخليفة، فوافقوه وبايعوه، وكانت تلك بداية واحدة من أعنف الثورات ضد الحُكم الأموي على الإطلاق، مع أن وازعها لم يَكن دينيًا أو مذهبيًا إنما شخصيًا.

دخل ابن الأشعث البصرة وتبعه أهلها، ثم طُردَ منها فذهب إلى الكوفة، وقربها دارت وقعة دير الجماجم سنة ٨٣ هـ وهُزمَ فيها، فهربَ إلى سجستان وانتحرَ هناك.

كان والي العراق والمشرق (خراسان وسجستان وغيرها) طوالَ عهد عبد الملك وجزء كبير من عهد ابنه من بعده هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد كان له دورٌ كبيرٌ في إخماد الخوارج وتهدئة الأوضاع في العراق بعد أن عصفت بها الثورات طوال العقود السابقة، حيث اتَّخذ سياسة ترهيب ضدَّ أهلها، وكان يُلاحق قادة الخوارج وكل من يَدعون لعصيان الخليفة وقتل الكثير منهم، وقد خلَّف هذا سمعة سيّئة للدولة الأموية عند أهلها (على الرغم من أنهم كانوا بالفعل يبغضون الأمويين) كانت سببًا مهمًا وبارزاً في سُقوط الدولة لاحقًا، كما فصلت بين أهل الشام كمؤيدين للخلافة وأهل العراق كمعارضين لها. وقد منحَ هذا الأمر الحجاج سُمعة سيئة في العراق، ويَقول البعض عنه أنه قتلَ ١٠٠ ألف من أهلها، ولو أن مثل هذا الرَّقم غير مُثبَت.

كان من أبرز الإنجازات في عهد عبد الملك أيضًا بناء مسجد قبة الصخرة في القدس بجوار المسجد الأقصى سنة ٦٩١ م، كما أنه عرَّب الكثير من الدواوين وعرب سكَّ النقود للمرة الأولى في تاريخ الدولة.

وقد توفيَّ عبد الملك بن مروان بن الحكم في شهر شوال سنة ٨٦ هـ (أكتوبر سنة ٧٠٥م)، تاركًا الحكم لابنه الوليد،وقد جرت في عهده فتوحات عظيمة، وبلغت

فيه الفتوحات الأموية ذروتها، حيث أنها يُمكن أن تعد الذروة الثانية للفتوحات الإسلامية بعدَ أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.[٧١]

فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير وطارق بن زياد في عهد الوليد بن عبد الملك.

عُزلَ حسان عن المغرب في عهد عبد الملك وعُيِّن مكانه موسى بن نصير سنة ٨٦، وهُنا سارَ على رأس جيش كبير، وأتمَّ فتح المغرب،[١] ونجحَ في إدخال الكثير من قبائل الأمازيغ بها في الإسلام، وفي سنة ٩٠ هـ وصل إلى مدينة طنجة، ففتحها ووضعَ فيها حامية من ١٢٫٠٠٠ رجل بقيادة طارق بن زياد الليثي. وحسبَ ما رواهالذهبي فقد جهَّزَ موسى بن نصير ابنه عبد الله للفتح منذ عام ٨٦ هـ عندما أمره بفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة الواقعتين على ساحل الأندلس، لكن هناك أيضاً رواية أخرى أيضاً – رواها ابن الأثير – تذكر أنَّ أمير مدينة سبتة «يوليان» دعى ابن نصير بنفسه لفتح الأندلس وتخليصه من حكم القوط الغربيين (الذي كانوا حكامها آنذاك)، وأخبره بأن البلاد كانت في حالة من الفوضى والنزاعات الداخلية وأنها لن تشهد مقاومة كبيرة. وقد استأذن ابن نصير الخليفة في الفتح، فأذن له إن تأكد من حسن نوايا يوليان، فأرسل حملة استطلاعية من ٥٠٠ رجل بقيادة طريف بن مالك، الذي أكد له أقوال يوليان، فأرسل طارق بن زياد مع ٧٫٠٠٠ جنديٍّ إلى الأندلس في شهر رجب سنة ٩٢ هـ (مايو سنة ٧١١ م)، وهُنا عادَ ملك البلاد رذريق وسارَ إليه بـ١٠٠٫٠٠٠ رجل، فأمده ابن نصير بخمسة آلاف، والتقى الجيشان في معركة وادي لكة التي انتصرَ فيها المسلمون وقُتل رذريق، وفُتحت الأندلس بعدها مدينة تلو الأخرى دون مقاومة تُذكَر.

لكن وعلى الرُّغم من رغبة موسى بن نصير في إكمال الفتوحات، بل ونيّته في فتح أوروبا كلها من الأندلس حتى يَبلغ القسطنطينية من الغرب، فقد عارضَ الوليد بن عبد

الملك مثل هذا الأمر بشدة لما قد يَعود به من عواقب على جيوش المسلمين في تلك البلاد البعيدة، وأمر ابن نصير وطارق بن زياد بالعودة إلى دمشق، فامتثلا لأمره وبقيا هناك حتى وفاتهما، وتوقّفت فتوحات أوروبا إثر ذلك حتى نهاية عهد الوليد.

وفي بلاد الروم - البيزنطيين - استمرَّ الصوائف والشواتي على الدوام، لكن كانت الحدود الفعلية شبه ثابتة، حيث يَعود المسلمون دائماً إلى حصونهم بعد الغزوات. ومن الغزوات الكبيرة غزوتان لمسلمة بن عبد الملك، واحدة سنة ٨٩ هـ وصلَ فيها حتى مدينتي عمورية وهرقلية، وأخرى في سنة ٩٢ هـ عبرَ فيها كل الأناضول حتى بلغ بحر مرمرة. كما غزا المسلمون في البحر جزيرتي ميورقة وصقلية سنة ٨٩ هـ،وجزيرة سردينيا سنة ٩٢ هـ.

عيَّن الحجاج بن يوسف الثقفيّ قائدين في المشرق كان لهما دورٌ بارز جداً في الفتوحات خلال عهد الوليد بن عبد الملك.

تولّى أولهما وهوَ قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة جيوش خراسان سنة ٨٧ هـ (٧٠٦م)، وقد باشرَ قتيبة فتوحاته في بلاد ما وراء النهر في العام نفسه، ففتح بيكند،ثم فتحَبخارى وبلخ سنة ٩٠ هـ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ،وكابل سنة ٩٤ هـ، وأخيراً فتح كاشغر سنة ٩٦ هـ(وهي عاصمة تركستان الشرقية)، وهكذا بلغَ حدود الصين، ولم يَغزو الصين قط، غير أنه أجبر إمبراطورها على دفع الجزية للأمويين، وكانت تلك أقصى فتوحات المشرق، حيث عزل عن ولايته في العام ذاته، وقد بلغت بذلك مساحة الأراضي التي وُلِّيَ عليها (وهي ولايةخراسان وعاصمتها آنذاك مرو) أكثر من ٤أ٠٠٠أ٠٠٠ كيلومتر مربع، وبلغ طول حدودها أكثر من ٤أ٠٠٠ كم. وأما محمد بن القاسم الثقفي فقد تولّى في الوقت ذاته فتحَ إقليم السند، حيث سارَ في شهر ربيع الأول سنة ٨٩ هـ (٧٠٧ م) على رأس جيش قوامه ٦أ٠٠٠ رجل وهو ابن سبعة عشر عاماً، وفتح مدينة «الدبيل» الواقعة مكان كراتشي اليوم سنة ٩٣ هـ، وفرَّ منها ملك

السند داهر، الذي التقاه المسلمون لاحقاً في معركة على نهر مهران، وانتصروا فيها وقتلوا داهر على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في المعركة. وأخيراً فتحَ مدينة الملتان سنة ٩٤ هـ، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتمَّ فتح السند وضُمَّت بدورها إلى الدولة الأموية.

كان من الإنجازات البارزة الأخرى في عهد الوليد بناء الجامع الأموي الكبير أو مسجد بني أمية في مدينة دمشق،إذ كان متقسماً بين المسلمين والمسيحيين لتأدية عباداتهم منذ فتح الشام، لكن مع ازدياد أعداد المسلمين قرَّر الوليد تحويله بأكمله إلى مسجد، وذلك مقابل تعمير أربع كنائس للمسيحيين في المدينة، وكان ذلك في السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة.

ولكن بناء المسجد لم يَكتمل إلا بعد عشر سنوات، في عام ٧١٥ م، حيث أن العمل كان كبيراً واحتاجَ وقتاً طويلاً. كما قام الوليد بتوسعة المسجد النبوي في المدينة.

واهتمَّ بتعبيد الطرق في الدولة، خصوصاً الطرق المؤدية إلى مكة لتسهيل الحج إليها من أنحاء العالم الإسلامي.

توفيَّ الوليد في شهر جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (فبراير سنة ٧١٥ م)، وتولّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك. وفي عهده فتحَ يزيد بن المهلب – والي خراسان – سنة ٩٨ هـ[٩٦] إقليمي طبرستان وقهستان. وأما الحدث الأبرز في عهده فقد كان حصار القسطنطينية سنة ٩٨ هـ، وهو حصار أداره بنفسه مع أخيه مسلمة بن عبد الملك من أرض دابق، وظلَّ هناك سنة كاملة، حتى توفيَّ وهو لا يزال في دابق في شهر صفر سنة [٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م)، وقد امتُدحت خلافته وقيل عنه أنه أحسن إلى الناس ومعاملتهم بعد أن كان قد شدَّ عليهم الحجاج في أيام عبد الملك والوليد، كما امتُدحَ أيضاً لاختياره ابن عمه عمر بن عبد العزيز خليفة من بعده.

عهد عمر بن عبد العزيز

اشتُهرَ عهد عمر بن عبد العزيز بأنه عهد عمَّ فيه رخاءٌ واستقرارٌ عظيم في أنحاء الدولة الأموية، وسادَ فيه العدل، حتى أنه يُقال أن المتصدقين كانوا يبحثون فيه عن فقراء ليعطوهم المال فلا يَجدون،كما أنه كثيراً ما يُلقب نظراً إلى ذلك بـ«الخليفة الزاهد» أو «خامس الخلفاء الراشدين»، حيث قيل أن أيام الخلافة الراشدة قد عادت في عهده.

عندما بُويع عمر على الخلافة قرَّر وقف الفتوحات نظراً لاتساع الدولة الكبير، وتوجَّه بدلاً من ذلك لتوطيد الحكم وإصلاحه والاهتمام بأمور الناس ودعوة أهل المناطق المفتوحة إلى الإسلام بدلاً من فتح المزيد من البلاد.

وقد أخذ عمر بن عبد العزيز أيضاً من أقربائه من بني أمية ما في أيديهم من مال وأعاده إلى بيت مال المسلمين، ووصفه بأنه «مظالم»، وقد أغضبَ ذلك بني أمية وجاءوا إلى بيته يَشتكون، غير أنه رفضَ رفضاً شديداً، وقال:

«إن الله بعثَ محمَّداً - - رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافّة، ثم اختار له ما عند وترك للناس نهر شربهم سواء، ثم وليَ أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم وليَ عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضي الأمر إليَّ وقد يبسَ النهر الأعظم، فلم يُروَ أصحابُه حتى يعود إلى ما كان عليه.»

كما قال سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، وما كان سواهم فهم منتزون». ومما يُروى أيضاً عن زهده أنه لم يَكن يُنفق على نفسه سوى درهمين اثنين في اليوم،ومرَّة دخلَ عليه ابن عمه مسلمة فوجده بقميص بالٍ ومتسخ، فأمر زوجته فاطمة بإعطائه قميصاً نظيفاً، وعندما عادَ مجدداً وجده على الحال نفسها، فعاتبها، فأخبرته أنه لم يَكن يملك قميصاً غيره. وقد

أصلح عمر بن عبد العزيز الأراضي الزراعية وحفر الآبار ومهَّد الطرقات وعمَّر الخانات (الفنادق) لأبناء السبيل، كما بنى المساجد، وحكمَ بعودة الأراضي المغتصبة غير المُسجَّلة إلى بيت مال المسلمين، وساهمت إصلاحاته المختلفة هذه في القضاء على الفقر في أنحاء الدولة.

شهدَ عهد عمر بن عبد العزيز أول تحرك جديدٍ للخوارج منذ أيام عبد الملك، بعد أن استكانوا لزهاء ثلاثة عقود منذ أيام الحجاج. وقد أرسل إليهم عمر جيشًا، غير أنه أمره بعدم الهُجوم، وفي حال سفك الخوارج دماءً أو اعتدوا على الناس فليحول الجيش دون ذلك، وفي الآن ذاته بعث رسولاً إلى قائد الخوارج «بسطام اليشكوريّ» يدعوه إلى التوقف، وبعد عدَّة مراسلة بينهما اقتنع بسطام بالتخلي عن التمرد.

وأما الفتوحات والحروب فكانت محدودة في عهده، حيث أمرَ الجيش الذي أرسله سليمان لمحاصرة القسطنطينية بالرُّجوع، وعدى عن ذلك فلم تحدث في خلافته سوى بعض الغزوات في الأناضول وأذربيجان (كما اعتادَ المسلمون مع الروم في معظم أيام الأمويين).

توفيَّ عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة ١٠١ هـ (يناير سنة ٧٢٠ م)، بعدَ أن دامت خلافته لسنتين ونصف تقريبًا. وقد تولّى الخلافة بعده ابن عمِّه يزيد بن عبد الملك.

يَعتبر الكثير من المؤرخين - مثل ابن كثير - أن يزيد تأثر بعمر في بداية خلافته، وأرادَ اتباعه في خلافته وحسن سيرته، غير أن أقران السوء أفسدوه.

وعلى أي حال فإن يزيد بن عبد الملك لم يَكن ذا خبرة ومقدرات تؤهله للخلافة، إذ كان شابًا لا يزيد عمره عن ٢٩ عامًا قضى أغلب حياته في اللهو والترف، وقد كان يُمكن لعهده أن يَشهد انحطاطًا كبيراً للدولة لولا بعض رجالها الذين حافظوا على قوتها مثل مسلمة بن عبد الملك، وقد كان عهده بالفعل عهد ضعف نسبيٍّ للدولة.

غزا المسلمون إقليم الصغد في ما وراء النهر عدَّة مرات خلال خلافة يزيد بعد أن نقض أهله عهدهم مع المسلمين (في سنتي ١٠٢ و١٠٤ هـ)، كما استمرُّوا بغزواتهم المعتادة في الصوائف والشواتي ضد البيزنطيين.

كما كانت هناك موقعتان كبيرتان في فرنسا، حيث عبرَ السمح بن مالك الخولاني جبال البرانس بجيشه سنة ١٠٢ هـ وحاصرَ طولوز، فسار إليه دوق فرنسا والتقيا في معركة تولوز التي انتهت بهَزيمة المُسلمين.

كما سار أمير الأندلس - عنبسة بن سحيم الكلبي - بعدها على رأس جيش إلى فرنسا وفتح سبتمانيا وليون وتوغل في منطقة بورغونيا، وغزا في فترة مقاربة محمد بن يزيد جزيرة صقلية.

وكان من أكبر الأحداث التي شهدها عهد يزيد ثورة ضخمة للخوارج قادها يزيد بن المهلب، حيثُ ثار على الخليفة ودعا إلى خلعه، وبايعه أهل البصرة، ثم امتدَّ نفوذه إلى الجزيرة الفراتية والبحرين وفارس والأهواز، غير أنه هُزِمَ وقُتِلَ ضد مسلمة - أخو يزيد - في معركة عفر قرب الكوفة بشهر صفر سنة ١٠٢ هـ (أغسطس سنة ٧٢٠م).

ذروة إتساع الدولة

توفيَّ يزيد بن عبد الملك في أواخر شهر شعبان من سنة ١٠٥ هـ (يناير سنة ٧٢٤ م)، وكان قد وَصَّى بالخلافة من بعده لأخيه هشام، فابنه الوليد.

كان هشام بن عبد الملك - على عكس أخيه الذي سبقه - خليفة قويـًا ذا خبرة وحنكة سياسية، وأدار الدولة بكفاءة عالية، وقد تمكن من الحفاظ على استقرارها طيلة عهده الطويل.

وعلى الرُّغم من عدم حدوث فتوحات كبيرة في عهده بضمِّ أراض جديدة للدولة - كتلك في عهد الوليد - فقد كانت الغزوات واسعة جداً، وكان القتال محتدماً على جبهة

الشرق في السند وما وراء النهر والشمال في الأناضول والقوقاز والغرب في الأندلس وجنوب غالة (فرنسا).

وعلى الرُّغم من ذلك فقد شهدَ عهد هشام بلوغ الدولة الأموية ذروة اتساعها وأقصى حدودها، التي امتدَّت من أطراف الصين شرقًا إلى جنوب فرنسا غربًا.

كان المسلمون قد بسطوا سيطرتهم على إقليم سبتمانيا منذ سنة ١٠١ هـ، وأصبحَ منذ ذلك الوقت مركزاً لهم للإغارة على مدينتي برغاندي وأقيتانية في جنوب فرنسا الحالية، وقد انتصرَ عليهم دوق أقيتانية في معركة طولوز على أيام يزيد وقتل قائدهم عنبسة بن سحيم الكلبي، غير أن المسلمين استأنفوا القتال بعدَ أن عين عبد الرحمن الغافقي واليًا جديداً للأندلس، والذي قادهم على رأس جيش من ٨٠٠٠ جندي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م)، فنهبوا بونة وفرضوا الجزية على سان وفتحوا أفينيون.

وقد تابع المسلمون تقدمهم، فانطلق عبد الرحمن على رأس جيش سنة ١١٢ هـ وفتح بوردو فأقيتانيا وبرديل وغيرها،[1] وفي النهاية خاض معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م)، ووصلت بذلك فتوحات الأمويين في المغرب أقصاها في عهد هشام، وظلَّ المسلمون محتفظين بحدودهم هذه بجنوب فرنسا (عندَ سفوحجبال البرانس الشمالية) حتى سنة ١٨١ هـ.

استمرَّت الغزوات والصوائف والشواتي ضد البيزنطيين في عهد هشام بن عبد الملك كما كانت الحال طوال العهد الأموي، غير أن هذه الغزوات - كالعادة أيضًا - لم تغير حدود الدولتين الأموية والبيزنطية. وقد قطعت صائفة سنة ١٠٧ هـ البحر إلى جزيرة قبرص، وفتحَ مسلمة بن عبد الملك مدينة قيصرية سنة ١٠٨ هـ، ووصلَ سعيد وسليمان بن هشام إليها أيضًا في سنة ١١١ هـ، وقد نجحَ الثاني في هزم قسطنطين وأسره خلال الغزوة.

وفي البحر الأبيض المتوسط غزا أمير إفريقية «حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع» جزيرة صقلية وفتح بها مدينة سرقوسة سنة ١٢١ هـ، كما غزا عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا سنة ١١٧ هـ وتمكن من السطيرة على قلعتها.

غزا المسلمون أيضاً منطقة أرمينيا والقوقاز مراراً وتكراراً في عهد هشام، حيث غزاها الحجاج بن عبد الملك بداية وفرَض عليها الجزية، غير أن غزوها أعيد بعدَ نقضها العهد مرات كثيرة، فقد حدث ذلك في سنة ١١٠ هـ، ثم ١١٢ هـ، ثم ١١٣ هـ، فقتلَ ابن خاقان الترك في الأخيرة، فتوجَّه لقتال المسلمين انتقاماً لابنه سنة ١١٤ هـ غير أنه هزم، ثم نقض العهد مجدداً سنة ١١٧ هـ فغزاهم المسلمون مجدداً، ثم تكرَّر الأمر ذاته سنة ١٢٠ هـ، وأخيراً غزى مروان بن محمد بلاد السرير سنة ١٢١ هـ وفرض عليها الجزية، كما شهدَ ذلك العام وفاة مسلمة بن عبد الملك بعد أن قاتل بشدة لعقود ضد الأتراك والبينزطيين.

وعلى جبهة الشرق استمرَّت الغزوات طوال الوقت لكن دون تحقيق فتوحات كبيرة، فقد غزى المسلمون فرغانة سنة ١٠٦ هـ، ثم بلاد الجبل وجبال هراة وبلاد الختل، غير أن أهل الأخيرة نقضوا العهد فأعيد غزوها سنة ١١٢ هـ، فرد سكانها بالأتراك بأن جاءوا وغزوا سمرقند فاقتتل معهم المسلمون قتالاً شديداً وانتصروا عليهم. وأعيد غزو بلاد الختل سنة ١١٩ هـ وقُتلَ ملكها «بدر طرخان»، كما قتل ملك الترك سنة ١٢٠ هـ. وقد غزى المسلمون ما وراء النهر ثلاث مرات سنة ١٢١ هـ وفرغانة مرتين سنة ١٢٣ هـ.

لم تتوقف ثورات الخوارج في عهد هشام كما كانت الحال في أغلب فترة حكم الأمويين، وكان من أبرز ثوراتهم عليه ثورة «شبيب بن صحاري» الذي قُتلَ في معركة بالعراق سنة ١١٩ هـ، كما شهدت السنة نفسها ثورة في الجزيرة، وشهدَ عهد هشام أيضاً ثورتين في المغرب وثالثة في الأندلس للخوارج.

غير أن أكبر الثورات في عهده على الإطلاق كانت ثورة زيد بن علي بن الحسين. وقد بدأت ثورته بأن أرسلَ إليه أهل الكوفة يقولون له: «إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يَكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية».فردَّ عليهم: «إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي». لكنه استجابَ لهم على الرغم من ذلك وأعلنَ الثورة على هشام سنة ١٢١ هـ وبايعه ١٥٫٠٠٠ رجل، وكانت تلك أول ثورة للشيعة منذ عهد مروان بن الحكم. وقد أمرَ هشام والي الكوفة «يوسف بن عمر الثقفي» بإخماد الثورة، فتوجَّه إلى زيد بن علي، وهُنا انفضَّ عنه أغلب من بايعه فلم يبقى ممن كان معه سوى ٢٠٠ رجل، وقد هُزمَ وقُتلَ زيد في المعركة، ومع ذلك فقد حزنَ هشام على موته لكرهه سفك الدماء.

مرحلة السقوط

توفيَّ هشام بن عبد الملك في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م)، وكان آخر من حكمَ من أبناء عبد الملك بن مروان، وبعده آل الحكم إلى جيل الأحفاد، وكانت تلك بادرة انحطاط الدولة.

وقد كان حُكم جيل الأحفاد - المرحلة الثانية من عصر المروانيين - عهداً توقَّفت فيه الفتوحات بعد كل ما حقّقته في العقود الماضية، وغرقت الدولة عوضاً عن ذلك في صراعاتها ونزاعاتها الداخلية. وقد كان وليُّ عهد هشام هو الوليد بن يزيد، حيث عينه والده يزيد بن عبد الملك ولي عهد ثانٍ نظراً إلى صغر سنه آنذاك،ولكن حتى عندما توفي هشام بعد عقدين كان لا يَزال شاباً يعيش حياة لهو وترف على شاكلة والده، ولم تكن لديه مؤهلات كافية للخلافة، وقد كان عهد الوليد الثاني هو بداية انحطاط وسقوط الدولة الأموية.

كان هشام يُخطط في عهده لوضع ابنه مسلمة وليًا للعهد بدلاً من الوليد، الذي لم يَرى فيه أهلاً للخلافة (على الرغم من أن مسلمة لم يَكن مختلفًا كثيراً في لهوه وترفه عن الوليد في الواقع)، وقد أيَّده بعض من حوله في ذلك، مما أخاف الوليد من أن يُدبر هشام لقتله، لكن الأجل وافى هشام قبل أن يَحدث ذلك، فاستغلَّ الوليد الفرصة وأخذ الخلافة لنفسه، ثمَّ أخذ بملاحقة من أيَّد تنصيب مسلمة وليًا للعهد مكانه وانتقمَ منهم مستغلاً سلطاته كخليفة.

وقد أدَّت انتقامات الوليد هذه إلى ثوران بعض القبائل التي انتمى إليها ضحاياه، والتي طالبت بالثأر، فاجتمع عدد كبيرٌ منها، وأيَّد القدرية الثورة لأنها كانت ضد حكم بني أمية، وقد استمال هؤلاء يزيد بن الوليد، فقادهم وجمعَ ١٠٠٠أ رجل في دمشق بعدَ أن عرض عليهم الكثير من المال، ثمَّ سار إلى منزل الخليفة فقبضَ على الوليد وقتله إذ أنه لم يَكن يملك حامية كبيرة، وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (أبريل سنة ٧٤٤ م)، وقد فتحَ مقتله باب فتن كبيرة عصفت بالدولة.

حاولَ يزيد الثالث أن يَكون خليفة صالحًا وزاهداً على طريقة عمر بن عبد العزيز، فحاول التقشف،وأعادَ رواتب الجند إلى ما كانت عليه بعد أن رفعها الوليد في عهده، فأغضبَ هذا الجند الذين منحوه لقب «الناقص»، وقد فجعَ كثيرون آخرون بمقتل الخليفة ولم يُبايعوا يزيد، ولذلك فقد أخذت الدولة بالتدهور سريعًا في عهده، وسُرعان ما توفيَّ بعد حكم دام ستة أشهر وفي السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة، بعدَ أن نصَّب أخاه إبراهيم بن الوليد وليًا للعهد بناءً على طلب القدرية.

اضطَّربت الأوضاع كثيراً عند وفاة يزيد، حيث رفضَ الكثير من الناس بيعة أخيه إبراهيم واعتبروه هو ويزيد مسؤولين أساسيَّين عن مقتل الوليد والفتن التي فجَّرها،وهُنا تدخلمروان بن محمَّد (ابن عم إبراهيم ويزيد ووالي أرمينيا وأذربيجان) وسارَ إلى دمشق على رأس جيش من ٨٠٠٠أ جنديّ،وكان قد أتاها من قبل في أيام يزيد، لكن

ذاك استرضاه ووعده بالإصلاح، ولكنه عزمَ هذه المرة على خلع الخليفة،ودخل المدينة في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م)، فهربَ منها إبراهيم، وبويع مروان بالخلافة.

كان مروان بن محمد خليفة قويـًا ذو حنكة وكفاءة عاليتين في إدارة الدولة، وكان قائداً عسكريـًا ذا خبرة عالية خاضَ حروبـًا طويلة مع البيزنطيين، وميَّزه ذلك عن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، غير أن الأوان كان قد فاتَ لإصلاح أمور الدولة، وكانت قد سقطت بالفعل في فوضى ونزاعات داخلية عارمة، ولذلك فقد كانت نهايتها في عهده هو.

عندما بُويع مروان بالخلافة كان من الأشياء الأولى التي فعلها هي نقل العاصمة من دمشق إلى مدينة حران في الجزيرة،إذ أنه لم يَثق بمن في الشام، وكانت ثقته محصورة بمساعديه وقادته الذين عرفهم وتعامل معهم لسنوات طويلة خلال ولايته على أرمينيا وأذربيجان، غير أن هذا التصرف جاء بعواقب وخيمة. حيثُ ثار عليه أهل الشام، فبدأت الثورة من فلسطين، ثم زحفت إلى دمشق فحمص، وبذلك خسرَ تأييد أهل الشام أنفسهم وهم أنصار الأمويين الأساسيين، مع أنه سُرعان ما سار وقمع الثورة.

لكن لم تستكن الأمور، فقامت الثورات واحدة تلو الأخرى، مرة في الجزيرة واليمن سنة ١٢٧ هـ، وأخرى في الموصل سنة ١٢٩ هـ، ثم في أفريقية في سنتي ١٣١ هـ و١٣٢ هـ،فضلاً عن الانقسامات الداخلية بين القبائل العربية المختلفة وداخل البيت الأمويّ نفسه. وقد أنهكت هذه الثورات المتتالية مروان، فأخذ يَتنقل من منطقة إلى منطقة يُحاول السيطرة على الدولة ومنعها من الانهيار، لكنه تفاجأ وهو غارق في صراعاته الداخلية يَقمعها واحداً تلو الآخر بالمدّ العباسي يأتي من المشرق فيكتسح خراسان فالعراق، فسار إليهم ووقعت معركة الزاب الكبير في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وقد كانت هذه المعركة هي نهاية الدولة الأموية وسُقوطها،[١٣٨] وقُتلَ مروان بعدها ببضعة شهور.

أخذ العباسيون بعدَ قيام دولتهم بمُلاحقة بني أمية وقتلهم، ولذلك فقد فرَّ الكثير منهم بعيداً محاولين النجاة بأنفسهم. وقد كان من بين هؤلاء عبد الرحمن الداخل، الذي فرَّ إلى الأندلس، وأعلنَ استقلاله بها تأسيس ولاية أموية في قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م). وقد تمكَّن الأمويون من البقاء بهذه الطريقة، فأسسوا الدولة الأموية في الأندلس، وظلُّوا يحكمونوها زهاء ثلاثة قرون، غير أن مصيرها في النهاية كان السُّقوط سنة ٤٢٢ هـ بعد أن تفككت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة.

الدولة والحضارة

المجتمع في الدولة الأموية

يُمكن القول أن المجتمع في عهد الدولة الأموية – على الرغم من عدم امتلاكه تدرجًا اجتماعيًا دقيقًا أو صارمًا – قد تألف من خمس طبقات أساسية، هي: الخلفاء والولاة والعلماء والأثرياء والعامة. فالطبقة الأولى هي الخلفاء وعائلاتهم، وهم أصحاب السلطة والسيادة العليا في الدولة ولهم الصلاحيات المطلقة بها. ثم يليهم كبار الولاة والقادة وكاتبو الدواوين. فالعلماء، الذين مع أنهم يأتون في الطبقة الثالثة فقد كان احترام العامة لبضعهم يفوق احترامهم وتقديرهم للولاة والخلفاء أنفسهم. ثم كبار الأثرياء من التجار وشيوخ العشائر. وأخيراً تأتي الطبقة الخامسة وهي عامة الناس، مثل المزارعين والحرفيين وغيرهم.

عاش العرب بشكل عام حياة بسيطة في أيام الإسلام وقبله، فكان طعامهم على سبيل المثال يتألف من بضعة أصناف فحسب، أفخرها على الإطلاق هو اللحم مع الثريد. لكن مع توسع الفتوحات في العصر الأموي وترامي أطراف الدولة وازدهارها اختلفت الحال، إذ اقتبس العرب عادات الكثير من الثقافات التي احتكوا بها نتيجة الفتوحات، فأصبحوا يستخدمون أدوات فخارية وخشبية لتناول الطعام كانت تأتيهم من الصين مثل

الشوك والملاعق، وأصبحوا يتناولون طعامهم على موائد وكراس خشبية بدلاً من أن يجلسوا على الأرض ويتناولوه بأيديهم كما في السّابق. وقد ساهم في نقل مثل هذه العادات الحياتية والاجتماعية إلى العرب إحضارهم الكثير من الجواري إلى بلادهم، فنقلن إلى العرب عادات وتقاليد شعوبهن.

كانت المناسبات الإسلامية وأبرزها عيدا الفطر والأضحى ذات صدى كبير في أنحاء الدولة الأموية، فكان يَخرج الخليفة في موكب مهيب وسط رجال الدولة الكبار يتقدمهم الجند لأداء صلاة العيد. كما أن الأعراس والأفراح وبعد أن كانت بسيطة جداً في عهود الخلفاء الراشدين وما قبل الإسلام باتت مترفة جداً وتُنفق عليها أموال طائلة، فكانوا يقيمون ولائم عظيمة في الأعراس، ثم يلعب الفتيان بالرامح ويتسابقون بالخيل فيما تجلس النساء يتحدثن إلى بعضهن البعض، وأما العروس فكانت تزين بزينة عظيمة، ويُحيط بها خدمها يُغنون لها حتى تذهب إلى بيت زوجها.

وقد كان من وسائل الترفيه والتسلية الشائعة في تلك الحقبة جلب المغنين أو «المضحكين» الذين يلقون النكات ويضحكون الناس. كما كانت ألعاب النرد والشطرنج شائعة أيضاً، اللتين أخذهما العرب من الفرس. كما كانوا يرفهون عن أنفسهم بالصيد والرياضة، وأقامت الدولة في عهد هشام بن عبد الملك سباقات كبيرة للخيل بلغ عدد المشاركين فيها ٤٠٠ حصان في إحداها.

بشكل عام امتاز المجتمع في العصر الأموي بالترف الكثير على النقيض من عهود الإسلام السابقة. ولم ينعكس ذلك على المناسبات والعادات الاجتماعية فحسب، إنما على ملابس العامة أيضاً، فتنافس الناس وخصوصاً الخلفاء وكبار رجال البلاط في شراء الملابس الجديدة والفاخرة والمتميزة، وأصبحَ الجميع يرتدون جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. ثم ومع ازدياد الإسراف أصبح التجار يجلبون معهم إلى البلاد الإسلامية مختلف أنواع الحرير والصوف بين موشّى ومطرّز

ومحاك بالذهب والفضة ومرصع بالأحجار الكريمة. وكان خلفاء بني أمية يرتدون ملابس بيضاء على الأغلب ومن أفخر أنواع القماش المطرز.

وكان من قطع الملابس التي ارتداها الأمويون: القباء (رداء أو زي خارجي مفتوح عند الرقبة أو يقفل بأزرار وهو ضيق الكمين وفي بعض الأحيان متوسط الاتساع) والدراعة (جبة مشقوفة من الأمام) والطيلسان (الطرح التي تغطي الرأس) والغلالة (ثوب رقيق شفاف يشبه القميص الذي ترتديه المرأة) الملحفة (ملاية) والإزار (لباس لستر العورة) والشاشية (قبعة) والتكة (رباط السروال).

كما أن أسلوب إنتاج الأقمشة الخاصة المطرزة في المناسج الملكية ولد في العصر الأموي، ثم تطور لاحقاً وساد في أنحاء الدولة الإسلامية خلال العصور الوسطى، وكان أول خليفة أموي يؤسس مصانع خاصة للنسيج المطرز هشام بن عبد الملك.[١٥١] وقد كان من الظواهر المهمة في العصر الأموي أن أصبحَ غير المسلمين يرتدون ملابس العرب الفاخرة، حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيز الذي حَرّم على أهل الذمة ارتداء لباس الرأس العربي ومنه العمامة والعصب والطيلسان والملابس العسكرية العربية والأردية الخاصة مثل القبعة، وكان على هؤلاء أن يرتدوا حزاماً متميزاً يسمى المِنْطَق وأحياناً الزُنّار.

الحركة العلمية

على الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلاميَّين كان في العهد العباسيّ فقد كان للأمويين دورٌ بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيأة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلميّ الذي بنى عليه العباسيون. ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد عبد الملك بن مروان، الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية للدولة أصبحت تستخدم في كل أصقاعها من المشرق إلى

المغرب، كما ساهمَ الوليد كثيراً أيضاً بإنشائه المدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة.

وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأمويّ تدوين العلوم وتعريبها للمرَّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمينالاطلاع عليها بسُهولة، كمان أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية.

كان أول من أنشأ مدارس منظمة تعمل برعاية الدولة وتحتَ إشرافها في التاريخ الإسلامي هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وساعد انتشار المدارس على التهيأة أكثر للنهضة العلمية العباسية، كما كان من إنجازات الوليد الأخرى أنه أول من أنشأ المستشفيات في التاريخ، وأنشأ إلى جانبها البيمارستانات، وهي دور وظيفتها إيواء المعاقين وذوي الأمراض العقلية والعصَبية، وقد اعتمدت الكثير من المشافي التي أنشأت لاحقاً في قارة أوروبا على نمط وأسس مشافي الوليد بن عبد الملك، وأصبح الأطباء الجدد يتتلمذون على أيدي أطباء هذه المشافي، وكان ذلك البادرة الأولى لولادة المدارس الطبية في التاريخ.

كانت حركات تدوين تاريخ العصر النبوي والراشدي وحتى الأمويّ نفسه في العصر العباسي في معظمها، غير أنَّ حركة تناقل الأخبار وتسجيلها على نحوٍ محدود بدأت منذ العهد الأموي، وحُفظت بذلك استعداداً لتدوينها في أيام العباسيين. وقد ساهمت في هذه الحركة عدَّة عوامل، منها دخول الكثير من الناس من الأمم الأخرى في الإسلام،وقد نقلَ هؤلاء أخبار تواريخ أممهم إلى العرب ورووها لهم، كما أَلَّف بعضهم كتباً خاصة تتحدث عن التاريخ ومغازي الرَّسول منذ تلك الفترة، وهب بن منبه وعروة بن الزبير بن العوام (أوَّل من دون سيرة الرسول) وكذلك أبان بن عثمان بن عفان وشهاب الزهريّ.

فن العمارة

قبل العصر الأمويّ كان فن العمارة العربي بسيطًا جداً ولم يتسم بالكثير من المعالم والمميزات، ولم تبدأ العمارة الإسلامية باكتساب نمط مختلف أكثر تعقيداً حتى العهد الأموي، غير أن العمارة الأموية جاءت متأثرة كثيراً وشديدة الشبه بالعمارة البيزنطية التي كانت سائدة قبلها في بلاد الشام، بل إنها استنسخت تقريبًا معالم الفن المعماريّ البيزنطي في الكثير من الأحيان دون تغيير كبير أو إضفاء صبغة مميزة عليه.

ويُمكن ملاحظة هذا التأثير على سبيل المثال في مسجد قبة الصخرة، فنمطه المعماريّ يشبه إلى حد بعيد النمط البيزنطي المسيحي، ولو أنه مع ذلك يتسم ببعض المميزات الإضافية المتسمدَّة من العمارة الإسلامية، فقد أضيفت إليه بعض المعالم الإسلامية مثل القبة والمئذنة فضلاً عن الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة التي أضيفت إلى زخرفاته، وبهذا مزجَ الأمويون الطراز المعماريّ البيزنطي مع العربي فيما أصبحَ الطراز المعماريّ الأمويّ. وقد تميَّز هذا الطراز المعماريّ بالزخارف والفسيفساء. وقد اهتمَّ بالعمارة من الخلفاء الأمويين بشكل خاص هشام بن عبد الملك، الذي كان النشاط العمرانيّ في عهده في ذروته.

نظراً إلى ترامي أطراف الدولة الأموية فبطبيعة الحال تفاوتت كثيراً الأنماط والطرازات المعمارية بين أنحائها المختلفة، التي اعتدات عليها شعوب المناطق المفتوحة حديثًا، وأما «العمارة الأموية» فظهرت في جلها بمنطقة بلاد الشام، مركز الدولة. وقد كانت القصور الأموية التي بنيت في هذه المنطقة فريدة، إذ لا توجد أي دلائل تاريخية أو أثرية على وجود مبانٍ مثلها وبمثل طرازها في الشام قبل الحكم الأموي.

وبشكل عام تُعد القصور والمساجد الجامعة الكبيرة أبرز الإنجازات المعمارية في العصر الأموي.

يُعد مسجد قبة الصخرة في مدينة القدس (المبنيّ في عهد عبد الملك بن مروان) وجامع بني أمية الكبير في دمشق (المبنيّ في عهد الوليد بن عبد الملك) اثنين من أشهر وأهم الإنجازات المعمارية الأموية على الإطلاق،[٦٨][٦٩] كما أن من أبرز الإنجازات المعمارية الأموية أيضاً توسعتا المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة المنورة، بالإضافة إلى قصري عمرة (قرب عمان) والمشتى (قرب أريحا)، كما أنشؤوا مدناً كثيرة من أبرزها الرصافة في الشام وواسط في العراق وقم في فارس وحلوان في مصر والقيروان في تونس.

الاقتصاد

ازدهر الاقتصاد في عهد الدولة الأموية ازدهاراً كبيراً نتيجة للفتوحات الإسلامية الكبيرة التي أدَّت إلى توسيع رقعة الدولة ووفَّرت لها موارد هائلة أغنتها ووفرت لها كل حاجاتها. يُوجد عدد محدودٌ من المصادر التاريخية التي تتناول موضوع الاقتصاد الأمويّ، غير أن مثل هذه الكتب تركّز على الاقتصاد من الناحية الفقهية، وأما المصادر التي تبحث ميزانية الدولة وأحوالها المالية في العصر الأموي فهي معدومة تماماً، ولذلك فإن الوسيلة الأساسية لمعرفة الأحوال الاقتصادية في عصر الدولة الأموية هي في دراسة المستوى المعيشيّ العامّ للأفراد مما نقلته كتب التاريخ.

وعموماً فقد كان الاقتصاد الأمويّ كبيراً ومزدهراً، حيث غذته كثيراً الفتوحات الإسلامية الواسعة، فأصبحت الدولة الأموية مسيطرة على أغلب الطرق التجارية الأساسية في العالم القديم، وسيطرت من ثمَّ على الحركة التجارية فيها، فضلاً عن أن ربوعها شملت الكثير من المراكز الزراعية والصناعية الهامة التي أغنت وأثرت اقتصادها، كما أن توسعها أتاحَ نمو حركة تجارية ضخمة بين ولاياتها بدون عوائق،

جعلت نقل البضائع والمتاجرة بها سهلاً ويسيراً، فازدهرت الحركة التجارية في الدولة. إذ شهدت الدولة الأموية حركة تجارية نشطة عبرَ أنحائها المختلفة الواسعة ومع الدول والإمبراطوريات الأخرى المجاورة على حد سواء. ولم تُقم الدولة أي قيود من أي شكل على كافة أشكال التجارة بين ولايات الدولة نفسها، كما لم تفرض قيوداً أو تقنن بأي شكل التداولات التجارية مع الدول المجاورة، ولم تحتكر أي نوع من البضائع التجارية، وبذلك فإن القوانين التجارية لم تختلف في العهد الأموي كثيراً عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة.

بشكل عام فقد كانت أغلب المبادلات التجارية في العالم القديم تدور بين أراضي الدولتين الأموية والبيزنطية الكبيرتين المتنازعتين، وقد أدَّت القطيعة بينهما نتيجة الحرب إلى شلل كبير في الحركة الاقتصادية خصوصاً في منطقة حوض المتوسط. بلغ الاقتصاد الأمويّ ذروة ازدهاره في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حتى أنه يُحكى عن عهده أن عمال الصدقات كانوا يَبحثون عن فقراء ليعطوهم المال فلا يَجدون. وقد وفّرت الدولة في عهده للأفراد خدمات كثيرة وساعدت على توفير العلاج وإعالة المحتاجين، كما ساعدت الشباب على الزواج وأعانت من يريد تأدية الحج، وغير ذلك من الحاجات.

القضاء

يعتقد بعض الباحثين أن الشريعة الإسلامية لم تُطبَّق في الأنظمة القضائية والقانونية في الدولة إلا في عهد الخلافة الراشدة، ثمَّ توقفت مع مطلع العصر الأموي، لكن على الرغم من ذلك فإن بعض الباحثين الآخرين - مثل راغب السرجاني - يَميلون في المقابل إلى أن تطبيق الشريعة الإسلامية في القضاء استمرَّ أكثر من ذلك بكثير، خلال العصر الأموي كله بل وما بعده أيضاً.

من أبرز التطوُّرات على الصعيد القضائي والقانوني التي شهدها العهد الأموي أن الخلفاء توقفوا عن التدخل بأنفسهم في القضاء كما كان يَفعل النبي محمد والخلفاء الراشدون من بعده، الذين كثيراً ما كانوا يُصدرون الأحكام القضائية بأنفسهم أو يضعون أسسها، غير أن الخلفاء الأمويين استمرُّوا بتوجيه قضاء الدولة في ثلاثة أمور لأهميتها الكبيرة، وهي: تعيين القضاة مُباشرة في عاصمة الدولة دمشق، وتعيين وعزل قضاة الدولة والإشراف على أعمالهم والأحكام التي يُصدرونها، والتأكد من التزامهم بالأسلوب القضائي القويم. كما مارس الخلفاء الأمويون بالإضافة إلى ذلك قضاء المظالم وقضاء الحسبة.

كان للقضاة دور كبيرٌ في ضمان سير العدل في الدولة الأموية، وقد خالفوا الخلفاء والولاة أنفسهم عندما لزمَ ذلك ووجهوهم إلى اللالتزام بالشريعة الإسلامية، مثل ما حدثَ عندما أراد والي مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) أخذ الجزية من المسلمين الجدد، فعارضه قاضي مصر آنذاك «ابن حجيرة» قائلاً: «أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنَّ ذلك بمصر». وقد تحقَّق عدل شبه كامل في كل الجوانب المالية بالدولة عندما جاء عهد عمر بن عبد العزيز.

لكن على الرغم من أن دخول المال إلى بيت مال المسلمين كان يَخضع لرقابة كبيرة من طرف القضاة، فإن خروجها منه لم يَكن بالمثل، إذ أن خلفاء بني أمية لم يَتبعوا الخلفاء الراشدين في هذا الأمر، حيث امتنع أولئك تماماً عن الاقتراب من بيت المال أو لمس ما فيه، وأما الخلفاء الأمويون فلم يعد في عهدهم فرق بين بيت مال الدولة وأموالهم الخاصة، وأصبحوا يأخذون منه ما يشاؤون ويغدقون المال على أغراضهم الخاصة، وأصبحوا أثرياء هم وأبناؤهم وعائلاتهم. ولم يُصلَح هذا الوضع حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيز، الذي كبحَ بني أمية ومنعهم من لمس بيت المال، وردَّ الأموال

إلى أصحابها، وتحرَّى العدل في مختلف جوانب الدولة. غير أن أواخر الخلفاء الأمويين مع ذلك انحرفوا مجدداً عن هذا الطريق وأسرفوا في أموال الدولة كثيراً.

اتَّبعَ الأمويون نفس أسلوب الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة. حيث يَقوم الخلفاء بتعيين قاضٍ على كل إقليم من أقاليم الدولة حسبَ كفاءته وأهليته للعمل. وقد دوَّن بعض هؤلاء القضاة أحاكمهم، مثل قاضي مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان «سليم التجيبي» الذي كان أوَّل قاض يدون أحكامه، وقد أصبحت بعض هذه الأحكام فيما بعد قواعد فقهية عندَ تدوين الفقه في العصر العباسي. ومن أبرز القضاة الأمويين:عامر بن شراحيل الشعبي وعبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي وأبو إدريس الخولاني وعبد الرحمن بن حجيرة وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الرحمن بن أذينة وهشام بن هبيرة، وآخرون غيرهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

خلفاء الدولة الأموية

معاوية بن أبي سفيان

أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، من أصحاب الرسول محمد وأحد كتّاب الوحي. سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها. ولد بمكة وتعلم الكتابة والحساب وأسلم قبل فتح مكة، ولما استُخلف أبو بكر الصدّيق ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، فكان على مقدمته في فتح مدينة صيداء وعرقة وجبيل وبيروت.

ولما استُخلف عمر بن الخطاب جعله واليا على الأردن، ثم ولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد (أخيه) ثم ولّاه عثمان بن عفان الديار الشامية كلها وجعل ولاة أمصارها تابعين له. وبعد حادثة مقتل عثمان أصبح علي بن أبي طالب الخليفة فنشب خلاف بينه وبين معاوية حول التصرف الواجب عمله بعد مقتل الخليفة عثمان إلى أن اغتال ابن ملجم الخارجي عليًا فتولى ابنه الحسن بن علي الخلافة ثم تنازل عنها لمعاوية عام ٤١ هـ وفق عهد بينهما، فأسس معاوية الدولة الأموية واتخذ دمشق عاصمةً له.

نشأته وحياته

نسبه

هو: معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بنخزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمّه: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمية القرشية.

يلتقي نسبه بنسب الرسول محمد في عبد مناف.

نشأته

ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر. وقد تفرس فيه أبوه وأمه منذ الطفولة بمستقبل كبير، فروي أن أبا سفيان نظر إليه وهو طفل فقال: «إن إبني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه»، فقالت هند: «قومه فقط؟ ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة.» وعن أبان بن عثمان قال: «كان معاوية يمشي وهو غلام مع أمه هند فعثر فقالت قم لا رفعك الله وأعرابي ينظر إليه فقال لم تقولين له فوالله إني لأظنه سيسود قومه فقالت لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه.»

له من الأخوة: يزيد بن أبي سفيان، وعتبة بن أبي سفيان، وعنبسة بن أبي سفيان. ومن الأخوات: أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم الحكم بنت أبي سفيان، وعزة بنت أبي سفيان، وأميمة بنت أبي سفيان.

أسرته

- تزوّج ميسون بنت بحدل وأنجبت له يزيد. وقد طلّقها.
- وفاختة بنت قرظة وأنجبت له عبد الله وعبد الرحمن.
- كنود بنت قَرَظة ، تزوّجها بعد أن طلّق اختها فاختة.
- ونائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها.

ومن بناته: رملة تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان. وهند تزوجها عبد الله بن عامر. وعائشة وعاتكة وصفية.

إسلامه

قيل أنه أسلم هو وأبوه وأمه وأخوه يزيد يوم فتح مكة، وقيل أنه أسلم قبل الفتح وبقي يخفي إسلامه حتى عام الفتح، قال الذهبي: «أسلم قبل أبيه في عمرة القضاء، وبقي

يخاف من الخروج إلى النبي صلى الله عليه وسلم، من أبيه.» وروي عن معاوية أنه قال:«لما كان عام الحديبية صدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت: إياك أن تخالف أباك، أو أن تقطع أمرا دونه فيقطع عنك القوت، فكان أبي يومئذ غائبا في سوق حباشة قال: فأسلمت وأخفيت إسلامي، فوالله لقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية إني مصدق به، وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم مصدق به، وعلم أبو سفيان بإسلامي فقال لي يوما: لكن أخوك خير منك، فهو على ديني، قلت: لم آل نفسي خيرا. وقال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح فأظهرت إسلامي ولقيته فرحب بي.»

صفاته الخَلقيّة والخُلقيّة

ذكر ابن أبي الدنيا، وغيره: أن معاوية كان طويلا، أبيض، جميلا، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب.

كان كريما سخيا خاصة مع أهل البيت والصحابة ولذلك شواهد منها:

- بعث مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم، فوالله ما أمست حتى فرقتها
- كان معاوية إذا تلقى الحسن بن علي قال له مرحبا وأهلا بابن رسول الله وإذا تلقى عبد الله بن الزبير قال له مرحبا بابن عمة رسول الله وأمر للحسن بن علي بثلاثمائة ألف وعبد الله بن الزبير بمائة ألف[1].
- روى الإمام أحمد عن علي بن أبي حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه ثوب مرقوع

- عن يونس بن ميسر الحميري الزاهد ـ وهو من شيوخ الأوزاعي ـ قال: «رأيت معاوية في سوق دمشق وهو مُرْدِفٌ وراءَه وصيفًا، وعليه قميص مرقوع الجَيْب يسير في أسواق دمشق.
- قال ابن عمر عن حلم معاوية:(معاوية من أحلم الناس قالوا يا أبا عبد الرحمن وأبو بكر قال أبو بكر خير من معاوية ومعاوية من أحلم الناس) .
- قال قبيصة بن جابر :(صحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلما ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه).

أعماله

أعماله في خلافة أبي بكر

تولى قيادة جيش إمداد لأخيه الصحابي يزيد بن أبي سفيان في خلافة أبي بكر ، وأمره أبو بكر بأن يلحق به فكان غازيا تحت إمرة أخيه، وقاتل المرتدين في معركة اليمامة، ومن بعد ذلك أرسلهُ الخليفة أبو بكر مع أخيهِ يزيد لفتح الشام وكان معه يوم فتح صيدا وعرقة وجبل وبيروت وهم من سواحل الشام.

ولاية الشام

تولى معاوية بن أبي سفيان ولاية الأردن في الشام سنة ٢١ هـ في عهد عمر بن الخطاب . وبعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان من طاعون عمواس، ولاه عمر بن الخطاب ولاية دمشق وما يتبع لها من البلاد، ثم جمع له الخليفة عثمان بن عفانعلى ولاية الشام كلها، فكان من ولاة أمصارها. وبعد موت عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ نادى بأخذ الثأر من قتلة الخليفة عثمان بن عفان وحرض على قتالهم. وقبل ذلك وقعت موقعة الجمل حيث كانت عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي محمد في جيش يقاتل للقصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان وكان في قيادة الجيش طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وكانوا خرجوا جميعا لأخذ الثأر من قتلة عثمان بن عفان ،

وبعد موقعة الجمل قاد معاوية جيشاً ضد خليفة المسلمين علي بن أبي طالب وكانت موقعة صفين التي انتهت بالتحكيم الجبري، وبعد مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب تولى الحسن بن علي الخلافة فثار معاوية على الحسن وحاربه فما كان من الحسن إلا أن حقن دماء المسلمين وأقام عهداً مع معاوية ينص على أنه يبايع معاوية على مابايع المسلمون عليه أبابكر وعمر وان يسير بسيرتهم وان الأمر يعود للمسلمين لاختيار خليفتهم بعد وفاة معاوية وهذا ما لم يحدث، وبموجب ذلك العهد تسلم معاوية الحكم فأصبح خليفة المسلمين في دمشق عاصمة دولة الخلافة الإسلامية.

سياسته الداخلية

- إنشاء الدواوين المركزية :
- ديوان الرسائل:هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده.
- ديوان الخاتم:أنشأ معاوية ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة. ديوان البريد:حيث أدخل نظام البريد إلى الدولة الإسلامية في دمشق.
- نظام الكتبة:حيث عين كاتب لديوان الرسائل، وكاتب لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان، الشرطة وخامس لديوان القضاء.
- توطين الأمن في خلافته :
- الحاجب: حيث كان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه.
- الحرس: وهو أيضا أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفا من الخوارج الذين يريدون قتله.
- الشرطة:وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام.
- حسن اختيار الرجال والأعوان.

- استخدام المال في تأكيد الولاء.
- اتباع سياسة الشدة واللين.
- جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الداخلية والخارجية في عهد معاوية قوية جدًا، وما يدل على قوتها:
- اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق .
- قصة الأسير المسلم عند البيزنطين، الذي لطم على وجهه بين يدي ملك الروم وقول الأسير :وا إسلاماه أين أنت يا معاوية، ووصل الخبر عند معاوية .
- الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي.

وفاته

توفّي في دمشق عن ٧٨ سنة بعدما عهد بالأمر إلى ابنه يزيد بن معاوية ودفن في دمشق وكانت وفاته في رجب سنة ٦٠ هـ كان خلالها واليًا ل ٢٠ عام وخليفة ل ٢٠ عام أخرى.

تولى معاوية بن أبي سفيان الشام بعد أخيه يزيد في زمن عمر بن الخطاب، ولم يزل بها متوليا حاكما إلى أن مات، ودام حكمه أربعون سنة منها في أيام عمر أربع سنين أو نحوها، ومدة خلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب وابنه الحسن بن علي، وذلك تمام عشرين سنة، ثم استوثق له الأمر بتسليم الحسن بن علي إليه في سنة إحدى وأربعين هجرية، ودام له عشرين سنة. ومات في شهر رجب بدمشق، وله ثمان وسبعون سنة. وكان أصابته في آخر عمره لقوة، وكان يقول في آخر عمره: ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى، ولم أر من هذا الأمر شيئا. قال الملا علي القاري: «وكان عنده إزار رسول الله ﷺ ورداؤه وقميصه وشيء من شعره وأظفاره فقال: كفنوني في قميصه، وأدرجوني في ردائه، وأزروني بإزاره، واحشوا منخري وشدقي ومواضع السجود من شعره وأظفاره، وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين».[٢٦]

نظرة أهل السنة والجماعة لمعاوية

يلقبه أهل السنة والجماعة بخال المؤمنين،ويذكرون أنه كان بعد إسلامه يكتب الوحي بين يدي الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم [٢٧][٢٨].

وأخرج البخاري في صحيحه (٢٦٣٦)، ومسلم (٥٩٢٥) عن أنس بن مالك عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت : نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني ثم أستيقظ يبتسم فقلت : ما أضحكك ؟ قال : « أناس من أمتي عرضوا علي يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة » ، قالت : فادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم نام الثانية ففعل مثلها فقالت قولها ، فأجابها مثلها ، فقالت : أدع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « أنت من الأولين » فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً. أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين فنزلوا الشام فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت وهذا الحديث فيه منقبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وذلك لأن أول جيش غزى في البحر كان بإمرة معاوية (فتح الباري (١١/ ٧٥) .) وقال المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٨٤) : « أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة أو أوجبوا لأنفسهم المغفرة والرحمة » . قال ابن عبدالبر في « التمهيد » (١/ ٢٣٥) : « وفيه فضل لمعاوية رحمه الله إذ جعل من غزا تحت رايته من الأولين ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي » .

عن أبي إدريس الخولاني قال لما عزل عمر بن الخطاب عمير ابن سعد عن حمص ولى معاوية فقال الناس عزل عميرا وولى معاوية قال عمير بن سعد رضي الله عنه : لا تذكروا معاوية إلا بخير فإني سمعت رسول الله ? يقول : « اللهم أجعله هادياً مهدياً واهد به » . وروى مسلم في صحيحه في باب "باب من لعنه النبى -- أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة." عن ابن عباس قال «كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله -- فتواريت خلف باب - قال - فجاء فحطأني حطأة وقال

« اذهب وادع لي معاوية ». قال فجئت فقلت هو يأكل - قال - ثم قال لي « اذهب وادع لي معاوية ». قال فجئت فقلت هو يأكل فقال «لا أشبع الله بطنه». قال ابن المثنى قلت لأمية ما حطأني قال قفدني قفدة. » وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم(١٦/ ١٥٦) «وقد فهم مسلم من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقا للدعاء عليه فلهذا أدخله في هذا الباب وجعله غيره من مناقب معاوية لانه في الحقيقة يصير دعاء له» وقال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » (٢/ ٦٩٩) : « لعل هذه منقبة لمعاوية لقول النبي: "اللهم من لعنته أو شتمته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة".

والجدير بالذكر أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد أشار أن خلافة النبوة من بعده ثلاثون عاما ثم ملك ورحمة، ومن المعروف أن الرسول محمد بن عبد الله قد توفي سنة ١١ هـ، أي أن في عام ٤١ هـ قد اكتملت الثلاثون عاما التي قد أشار إليها النبي محمد . حيث قال النبي محمد: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»[٣٦] بالإضافة إلى الحديث الصحيح الآخر الذي أورده البخاري في صحيحه وهو:«أخرج النبي ذات يوم الحسن، فصعد به على المنبر، فقال: ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين.»

وبالجملة فالصحابة كلهم عدول قال النووي رحمه الله في التقريب: "الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به (تقريب النواوي مع شرحه تدريب الراوي ٢/ ٢١٤) قال الذهبي في « السير » (٣/ ١٣٢) : « حسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - وهو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم مرة منه وكذلك فليكن الملك وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ؟ خيراً منه بكثير ، وأفضل وأصلح ، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه ، وسعة نفسه وقوة دهائه ، ورأيه وله هنات وأمور ، والله الموعد . وكان محبباً على رعيته ، عمل نيابة الشام عشرين سنة والخلافة عشرين سنة ولم يهجه

أحد في دولته ، بل دانت له الأمم وحكم على العرب والعجم ، وكان ملكه على الحرمين ومصر والشام والعراق وخراسان وفارس والجزيرة واليمن والمغرب وغير ذلك.

نظرة الشيعة لمعاوية

يرى الشيعة معاوية بن أبي سفيان بأنه خارج على إمام زمانه علي بن أبي طالب وحارب عليا في صفين ونافيا الصحابي أبا ذر الغفاري من الشام وقائد الفئة الباغية التي قتلت الصحابي عمار بن ياسر والذي قال فيه الرسول «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[٣٤] وكان من مؤيدي والساعين لإشعال معركة الجمل ففي رسالة بعث بها إلى الزبير بن العوام قال :«فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شي بعد هذين المصريين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، واعدوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير، أظفركما الله وخذل مناوئكما»

إضافة إلى ذلك فمعاوية سنّ سب علي بن أبي طالب على المنابر والانتقاص والاستهزاء منه ومن أهله وأنصاره، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : «أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، فقال : مامنعك أن تسب أبا التراب، فقال : أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم» وكانت من وصايا معاوية للمغيرة عندما ولاه الكوفة «أما بعد فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وقد أردت إيصاءك بأياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادا على بصرك... ولست تاركا إيصاءك بخصلة لا تتحمّ عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والاقصاء لهم»

وإضافة إلى طمعه في الخلافة فقد أوصى بالخلافة لغير أهلها كما ذكر ذلك معاوية بن يزيد بقوله «إنّ هذه الخلافة حبل الله وأنّ جدّي معاوية نازع الأمر أهله ومَن هو أحقّ

به منه عليّ بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتّى أتته منيّته فصار في قبره رهينًا بذنوبه، ثمّ قلّد أبي الأمر وكان غير أهل له ونازع ابن بنت رسول الله ، فقصف عمره، وانبتر عقبه، وصار في قبره رهينًا بذنوبه، ثمّ بكى وقال: مِنْ أعظم الأُمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبؤس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ، وأباح الخمر وخرّب الكعبة»

يزيد بن معاوية

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي الدمشقي (ولد في ٢٣ رمضان ٢٦ للهجرة ومات يوم الثلاثاء في ١٤ ربيع الأول ٦٤ للهجرة/ ٢٠ يوليو ٦٤٧ ومات في ١٢ نوفمبر ٦٨٣)، (حكم من ١٥ رجب ٦٠ للهجرة إلى ١٤ ربيع الأول ٦٤ للهجرة / ٢١ أبريل ٦٨٠ إلى ١٢ نوفمبر ٦٨٣).

ولد في خلافة الصحابي عثمان بن عفان في عام ٢٦ للهجرة في قرية الماطرونوأمه هي ميسون بنت بحدل الكلبية، طلقها معاوية فيما بعد. عاش فترة من حياته في البادية بين أخواله.

تولى الخلافة بعد وفاة والده في سنة ٦٠ للهجرة ولم يبق من معارضي فكرة توليته العرش - الأربعة - عند توليه الحكم غير الصحابي الحسين بن علي والصحابي عبد الله بن الزبير

في سنة ٦١ للهجرة اتجه الصحابي الحسين إلى العراق بعد أن أرسل أهلها إليه بالقدوم وأن يصبح أميرهم، ولكنه ما إن وصل هناك حتى تخلوا عن الفكرة ودخل الحسين في حرب مع جيش عبيد الله بن زياد انتهت باستشهاده. مرت سنة ٦٢ للهجرة بدون أحداث تذكر، ولكن معارضة الصحابي عبد الله بن الزبير في الحجاز وتهامة أخذت في النمو فثار أهل المدينة المنورة في سنة ٦٣ للهجرة على يزيد وخلعوا بيعته وأظهر عبد الله بن الزبير شتم يزيد، قام يزيد بتجهيز جيش لمحاربة عبد الله بن الزبير، وأهل المدينة إن رفضوا العودة في طاعته. انتهت

سنة ٦٣ للهجرة بانهزام أهل المدينة واستمر حصار ومحاربة معارضي مكة المكرمة حتى وفاة يزيد في سنة ٦٤ للهجرة.

وبعد وفاته ظلت شخصيته مدار جدل بين المؤرخين والعلماء والعامة حول إسلامه أو كفره، وحول لعنه أو المنع من لعنه، وحول نصبه العداء لآل البيت أو براءته من النصب، وحول شربه للخمر أو تبرئته.

النشأة

ولد يزيد في عام ٢٦ للهجرة وعاش مع أخواله لأمه فترة طفولته عندما طلق والده الصحابي معاوية والدته ميسون بنت بحدل، إلا أن يزيد لم يستمر في العيش هناك إذ عاد إلى دمشق بأمر من والده ليحضر مجالسه ويستفيد من سياسته.

عند عودة يزيد أحضر والده له المؤدبين، والعلماء، والنسابين، مثل دغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني، مؤدبًا ونسابة. وعبيد بن شرية الجرهمي، عارف بأيام العرب وأخبار الماضين. وعلاقة بن كرشم الكلابي النسابة. وهؤلاء النسابون أثروا في يزيد، حيث يعتبر يزيد من النسابين الخبراء في النسب،[١٢] وهو رأس الطبقة الثانية في طبقات النسابين. وكان الصحابي معاوية يأمر ابنه بالاستماع إلى وفود العرب التي تفد عليه ليأخذ من حكمتهم. وكان علماء اللغة يحضرون مجلسه.

نسبه

أما نسبه فهو: يزيد بن معاوية بن أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأمه هي: ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب، من كلب.

وصفه خَلقيًا وخُلقيًا

كان طويلاً، أسمراً، مجعد الشعر، شديد سواد العين وبياضها، في وجهه أثر الجدري، ذا لحية خفيفة حسنة، شاعراً فصيحًا، خطيبًا، كريمًا، شجاعًا، غير متكلف في حياته.

مشاركته في الفتوحات الإسلامية

غزوة الطوانة

في سنة ٤٥ للهجرة أرسل معاوية يزيد بجيش إلى الروم ومعه زوجته أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فنزل في دَير سمعان ووجه الجنود ليقاتلوا وسميت باسم غزوة الطوانة، وهناك أصابهم وباء الجدري فتمثل بيتين في الوباء، فلما سمع معاوية كلامه حلف عليه إلا أن يلحق بالجيش، فكتب إليه يزيد بيتين من الشعر يجيبهم فيها عليه.

غزوة القسطنطينية

وفي سنة ٤٩ للهجرة، بدأ معاوية بتجهيز جيش كبير ليغزو القسطنطينية، وجعل هذا الجيش بقيادة ابنه يزيد، وأرسل مع ابنه بسر بن أرطأة، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد الأنصاري. وتم تقسيم الجيش الإسلامي إلى جيش بحري وجيش بري، وعلى عرش الدولة البيزنطية قسطنطين الرابع، والذي استعد لإيقاف الغزوة. واشترك في هذه الغزوة الكثير من الصحابة وأبنائهم مثل: أبو أيوب الأنصاري، عبد الله بن عباس، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عمر، الحسين بن علي وأبو ثعلبة الخشني. بعد وصول الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية تم محاصرتها من البر والبحر بأعداد كبيرة من الجند والسفن، بدأ الهجوم من الجهة الشرقية في محاولة لاختراق الدفاعات والاقتراب من أسوار المدينة، وبعد ذلك بدأ الهجوم في البحر حيث قام عبد الله بن قيس بمهاجمة السفن البيزنطية وتدميرها وأخذ راكبيها أسرى إلى يزيد. حاول يزيد استغلال هذه الفرصة، فأمر بقتل الأسرى أمام أنظار البيزنطيين، إلا أن هذه المحاولة لم تنجح في

إضعاف البيزنطيين وهمتهم، بعد ذلك بدأ البيزنطيون برد الهجوم على المسلمين فهاجموهم بالنار الإغريقية والتي ساهمت في هزيمة المسلمين. في نهاية المعركة مرض الصحابي أبو أيوب الأنصاري مرض الموت فطلب من يزيد أن يدفنه عند أقرب مسافة من العدو، وبعد وفاة أبي أيوب الأنصاري سار يزيد بالجيش إلى أقرب موضع قدر عليه ثم دفنه، ورغم انتهاء المعركة إلا أن الحرب لم تنته حيث استمر الحصار حتى سنة ٦٠ للهجرة، رغم عودة يزيد إلى دمشق ثم حجه بالناس في نفس العام.

اختياره وليًا للعهد

المرشحون لخلافة معاوية

لم يكن يزيد أحد المرشحين لخلافة معاوية لحكم المسلمين في بادئ الأمر، بل حدد الخليفة معاوية بن أبي سفيان أن الخلفاء من بعده سيكون واحداً من ستة أشخاص سماهم، وهم: سعيد بن العاص، عبد الله بن عامر، الحسن بن علي، مروان بن الحكم، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير.

ووصفهم معاوية بصفات حسنة كالفقه، والاهتمام بالحدود، والكرم،والدهاء.

ولم يفكر الصحابي معاوية في أخذ البيعة ليزيد إلا بعد وفاة الحسن بن علي، وكان يرى أنه لم يبق إلا ابنه وأبناء الصحابة وابنه أحق،لتمرسه السياسة ومعرفته بحاله وأن أهل الشام لا يقبلون إلا أمويًا.

أخذ البيعة له

أهل دمشق

طرحت فكرة البيعة أولاً على أهل دمشق،فصعد خليفة المسلمين معاوية على المنبر وأعلن أنه اختار يزيداً خليفة بعده فرضي أهل دمشق وبايعوه بدون أي اعتراض.

الوفود من الأمصار

في سنة ٥١ للهجرة أرسل الخليفة معاوية إلى البلدان بأن يفد إليه الناس، فكان مما أتى:

وفد أهل الشام	وفد أهل البصرة	وفد أهل المدينة
• الضحاك الفهري.	الأحنف بن قيس التميمي.	محمد الأنصاري.
• ثور السلمي.		
• عبد الله الأشعري.		
• عبد الله الفزاري.		
• عبد الرحمن الثقفي.		
• حسان الكلبي.		

واجتمع الخليفة بهم ما عدا ممثل أهل المدينة فتكلم معه على انفراد، وقال كل واحد منهم رأيه.

ما أصبح اليوم على الأرض أحد أحب إلي رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسطاً في الحسب، وإن الله سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولي أمة محمد

—العقد الفريد، محمد الأنصاري

يا أمير المؤمنين، إنه لابد للناس من وال بعدك، والأنفس يغدى عليها ويراح، وإن الله قال: {كل يوم هو في شأن} ولا ندري ما يختلف به العصران، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن معدنه وقصد سيرته، من أفضلنا حلماً وأحكمنا علماً، فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك، فإنا قد بلونا الجماعة والألفة، فوجدناها أحقن للدماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاقبة والآجلة

—العقد الفريد، الضحاك الفهري

أيها الناس، إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفده أغناكم، جدع قارح، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه

—العقد الفريد، عمرو بن سعيد

أمير المؤمنين هذا(وأشار إلى معاوية)، فإن هلك فهذا(وأشار إلى يزيد)، فمن أبى فهذا(وأشار إلى السيف)

العقد الفريد، يزيد بن المقنع

يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضا، ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة

-العقد الفريد، الأحنف بن قيس التميمي

ثم تمت البيعة ليزيد.

أهل الحجاز

بعدما بايعت الوفود ليزيد، أرسل معاوية ابن أبي سفيان إلى واليه على المدينة مروان بن الحكم بأخذ البيعة ليزيد، فخطب مروان فيهم وحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد وشبهها بعهد أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب. إلا أن عبد الرحمن بن أبي بكر رفض البيعة وأنكر أن تكون متشابهتين مما أدى لحصول خلاف بينه وبين مروان.

بعد ذلك، أرسل الخليفة رجلاً آخر لعل أهل المدينة يوافقون على البيعة، وهو زياد ابن أبيه فخطب فيهم وقال:

يا معشر أهل المدينة، إن أمير المؤمنين حسن نظره إليكم، وإنه جعل لكم مفزعاً تفزعون إليه، يزيد ابنه

إلا أن أهل المدينة رفضوا مرة أخرى.

بعد رفض أهل المدينة التام لمبايعة يزيد بسبب فكرة تولية ابن الخليفة حاكماً من بعده، قرر معاوية بن أبي سفيان أن يزور المدينة في طريقه للحج في عام ٥١ للهجرة، فتوجه إليها مع ألف من أهل الشام ومعه ابنه يزيد.

فلما اقترب من المدينة خرج عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير منها إلى مكة. ولما وصل معاوية إلى المدينة خطب فيهم وقال:«قد بايعنا يزيد فبايعوه»، ثم توجه إلى مكة.

بعد أن أكمل الخليفة نسك الحج، ابتدأ بعبد الله بن عمر أولاً، ودار بينهم حوار انتهى بموافقة عبد الله بن عمر على بيعة يزيد إذا اجتمع الناس على بيعته،[1] بعد ذلك جرى حوار سريع بين الخليفة وعبد الرحمن بن أبي بكر وكانت نتيجته الرفض التام للمبايعة وتحذير الخليفة له من إعلان رفضه قبل أن يعلن أنه بايع أمام أهل الشام لكيلا يقتلوه، فلم يعترض.

بعد ذلك لم يبقى إلا الصحابي عبد الله بن الزبير والذي قال الخليفة بأنه السبب في رفض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر للبيعة، إلا أن عبد الله بن الزبير أجاب الخليفة بأن عليه أن يتنحى عن الإمارة إذا ملها، وأنه لا يقدر أن يبايع شخصين في الوقت ذاته وقال:«إن مللت الإمارة فهلم ابنك فلنبايعه».

فهم الخليفة من آراء الثلاثة أنها لا تعترض على شخص يزيد فصعد المنبر وأعلن أن الثلاثة قد وافقوا على البيعة (موافقة مبدئية)، إلا أن أهل الشام لم يرضوا وطلبوا من الخليفة أن يأمرهم بإعلان البيعة أو ضرب أعناقهم، مما أدى لغضب الخليفة عليهم ونهرهم وأمرهم بعدم الإساءة إلى قريش، وفي نهاية الأمر بايع الناس ليزيد وكان ممن بايعه ستون صحابياً.

وفاة الخليفة معاوية

وصيته ليزيد

يا يزيد، إذا دنا أجلي فول غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني واجعل ذلك الثوب مما يلي جلدي دون أكفاني. يا يزيد، احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي، ووضعتموني في حفرتي، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين

بعد وصية الخليفة ليزيد، خرج يزيد إلى قرية حوارين وفي شهر رجب توفي الخليفة معاوية فصلى عليه الضحاك بن قيس الفهري ودفنه في مقبرة باب الصغير، وبعدها أرسل إلى يزيد ليحضر.

إعلانه كخليفة

بعد وصول البريد إلى يزيد ركب مسرعاً إلى دمشق حيث استقبله قبل وصوله الضحاك بن قيس الفهري وكان الحزن بادياً عليه، فسلم عليه مستقبلوه بالإمارة وعزوه في أبيه ويخفض صوته في الرد عليهم، ولم يتكلم إلا مع الضحاك بن قيس، حتى

وصل إلى باب توما فظن الناس أنه سيدخل دمشق. لكن يزيد استمر بالمشي مع السور حتى وصل إلى الباب الشرقي (باب خالد)، ثم تعداه حتى وصل إلى الباب الصغير.

بعد وصوله إلى المقبرة ذهب إلى قبر والده وصلى عليه بعد دفنه. بعدها خرج يزيد من المقبرة راكبًا على مراكب الخلافة ثم دخل البلد ونادى "الصلاة جامعة"، وذهب هو إلى قصر الخضراء واغتسل ولبس ملابس حسنة ثم ذهب للمسجد وصعد المنبر وخطب في الناس، وأعلن في خطبته عن جمع الأعطيات مرة واحدة لا على ثلاثة مرات كما كانت في عهد والده، وعن توقفه عن إرسال الجيوش داخل البحر أو في الشواتي والاقتصار على غزوات البر والصوائف، وافترق الناس وهم يثنون عليه..

حياته كخليفة للمسلمين

أعماله

بسبب عدم رواية المؤرخين للكثير من أخباره، فإنه لم ينقل في الكتب إلا الأحداث المهمة التي حصلت في عهده. مع ذلك فإن في عهده تم توسيع إحدى قنوات نهر بردى ونسبت إليه (قناة يزيد).[٢٩] كما فرض الخراج على أراض يهود السامرة، وفرض على كل شخص خمسة دنانير.[٣٠]

الفتوحات الإسلامية في عهده

جبهة إفريقية

في عام ٦٣ للهجرة غزا عقبة بن نافع السوس القصوى فغنم وسلم ثم عاد وقتل على يد كسيلة.

ثم حدثت معركة بين كسيلة وزهير بن قيس البلوي وانتصر فيها.

جبهة الروم

سار يزيد على خطة أبيه في الصوائف، ففي عام ٦١ للهجرة، أرسل مالك بن عبد الرحمن الخثعمي إلى أرض الروم، ثم أرسل صائفة بقيادة مالك بن عبد الله إلى مدينة قونية، وشارك فيها الخثعمي.

وكذلك أرسل صائفة أخرى في عام ٦٢ للهجرة بقيادة الحصين بن النمير السكوني. وفي نفس العام غزا عبد الله بن أسد بن كرز القسري،قيسارية.

وفي عام ٦٤ للهجرة غزا يزيد بن أسد أرض الروم.

جبهة المشرق

في عام ٦٢ للهجرة غزا سلم بن زياد، خوارزم فغنم مالاً كثيراً.

ثم اتجه إلى سمرقند فصالحوه.

وولى المنذر بن الجارود السند في هذه السنة وثغر قندابيل، ولما مات أخذها ابنه الحكم.

ثم أرسل سنان بن سلمة ففتح الموقان.

ثم أرسل عبد الرحمن بن يزيد الهلالي.

كما وصل المسلمون إلى بخارى، وخجنده، ويارقند وختن في شمال شرق جبال الهملايا.

المسؤولون في عهده

القضاء

- على البصرة: هشام بن هبيرة، في ٦٠ للهجرة قبل أن يأتي عبد الرحمن العبدي.

على البصرة: عبد الرحمن بن أذينة.

- على الكوفة: شريح الكندي.
- على المدينة:
- عبد الله بن عثمان التيمي بأمر من عمرو بن سعيد.
- طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري بأمر من عثمان بن محمد.

مقتل الحسين بن علي

مقتل الحسين بن علي عند السنة

بعد رفض الصحابي الحسين لبيعة يزيد وكثرة من كتب إليه من أهل العراق أن يأتي إليهم، قام بإرسال مسلم بن عقيل إلى العراق ليتأكد من بيعتهم له.

ولما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل في بيت هانئ بن عروة واجتمع الناس عنده وبلغ الخبر إلى عبيد الله بن زياد.

أرسل عبيد الله بن زياد إلى هانئ بن عروة أن يحضر فلما أتى قال له: «ألم أوقرك؟ ألم أفعل بك!» فأجابه: «بلى»، فقال عبيد الله: «فما جزاء ذلك؟» فأجابه: «جزاؤه أن أمنعك» فأمر عبيد الله بن زياد بقتله.

بلغ الخبر إلى مسامع مسلم بن عقيل خرج ومعه الكثير من الناس إلى القصر، فأمر عبيد الله بن زياد بإغلاق باب القصر.

بعد ذلك اتجه مسلم بن عقيل إلى مسجد عند السوق وكانت جماعات من الناس يتركونه كلما مر من طريق حتى وصل إلى المسجد.

بعد ذلك أمر عبيد الله بن زياد بخلع سقف المسجد بسبب عدم سماعه لأصوات الناس، ثم أمر بإشعال النار، فلما نظر لم يرى إلا خمسين رجلاً فقط، ثم اقتتل الطرفين وأصيب مسلم بن عقيل وانهزم أصحابه، وأخذ هو إلى إحدى البيوت.

وصل خبر مكان مسلم بن عقيل إلى عبيد الله بن زياد فأمر رجلين بإحضاره، فلما أحضر قال عبيد الله: «هيه هيه يا ابن خلية، جئت لتنزع سلطاني!» ثم أمر بقتله. بعد ذلك أمر عبيد الله بن زياد بمراقبة الطريق بين واقصة وطريق الشام وطريق البصرة.

الوصول لكربلاء

بعد خروج الحسين من مكة واقترابه، سأل الأعراب عن الأوضاع فأجابوه بعدم مقدرتهم الدخول أو الخروج. فقام الحسين بتغيير طريقه واتجه للشام ليقابل يزيد. إلا أن جيش عبيد الله بن زياد قابله في كربلاء بقيادة عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وهنا ناشدهم الحسين الله والإسلام أن يتركوه ليذهب إلى أمير المؤمنين

فيضع يده في يده فقال الحر بن يزيد: «ألا تقبلون من هؤلاء ما يعرضون عليكم! والله لو سألكم هذا الترك والديلم ما حل لكم أن تردوه» إلا أن شمر بن ذي الجوشن رفض إلا أن ينزل الحسين على حكم عبيد الله بن زياد فرفض، وانضم الحر بن يزيد إلى الحسين.

بعد ذلك تردد عمر بن سعد في محاربة الحسين، فأرسل عبيد الله بن زياد جويرية بن بدر التميمي ليقتل عمر بن سعد إن رفض القتال.

المعركة وما بعدها

كان مع الحسين خمسة من أخوانه، وستة عشر من بني هاشم وآخرون، وكان عددهم قرابة المئة. وبدأ القتال بين الطرفين وأصيب جميع الرجال ما عدا عليًا بن الحسين وأتي برأس الحسين إلى عبيد الله.

ولما أتى الرأس بين يدي عبيد الله أخذ يضع عصاه على فم الحسين ثم يقول: «إن أبا عبد الله قد كان شمط».

فغضب أنس بن مالك وقال: «كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مخضوبا بالوسمة».

ثم أمر عبيد الله بمنزل لنساء الحسين وبناته وأهله وأجرى عليهن رزقًا وأمر لهن بنفقة وكسوة.

بعد ذلك أرسل عبيد الله بن زياد أهل البيت إلى يزيد وأرسل معهم رأس الحسين فلما رآه يزيد بكى وقال: «لو كان بينه وبينه رحم ما فعل هذا».

وقال علي بن الحسين: «قتل الحسين وأدخلنا الكوفة فلقينا رجل فأدخلنا منزله فألحفنا فنمت فلم أستيقظ إلا بحس الخيل في الأزقة فحملنا إلى يزيد فدمعت عينه حين رآنا وأعطانا ما شئنا».

وقال يزيد: (والله ما علمت بخروج أبي عبد الله حين خرج ولا بقتله حين قتل) ثم استشار فقال النعمان بن بشير: (يا أمير المؤمنين اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآهم بهذه الحينة) ثم قالت فاطمة بنت الحسين: (يا يزيد بنات رسول الله سبايا؟) فبكى بكاء شديداً وبكى أهله حتى علت أصواتهم، ثم أمر بأخذهم إلى الحمام وأن يضربوا عليهم القباب وكساهم وأعطاهم الأعطيات.

كما ذكر ابن طولون أن يزيد قام بصلب قاتل الحسين .

يعتقد الشيعة أن المسبب الأول لقتل الحسين هو يزيد بن معاوية وأتباعه ومن دلائلهم على ذلك :

- **رسالته إلى بن زياد** : وقد كان قد ولاه على الكوفة بعد أن كان واليا على البصرة فقط ، وبعث له في رسالة مانصه : «... قَدْ بَلَغنِي أنّ اهل الكوفة قد كتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم وأنّه قد خرج من مكّة متوجّهاً نحوَهم وقد بلي به بلدك من بين البُلدان وأيّامُك من بين الايام، فإن قتلته وإلا رجعت إلى نسبك عبيد، فاحذر أن يفوتك» ، وقد أجمع عدد من العلماء على أن يزيد في رسالته هذه قد أعطى الأمر لابن زياد بأن يقتل الحسين ، من جملة هؤلاء العلماء : ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» ، الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ، ابوالفرج ابن جوزي الحنبلي في «الرد على المتعصّب العنيد» والسيوطي في «تاريخ الخلفاء» .
- **إقرار ابن زياد** : «وَ أمّا قتلي الحسين، فإنّه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله»
- **رسالة ابن عباس ليزيد**: «أمّا بعد فقد جاءني كتابك فأمّا تركي بيعة ابن الزبير فو الله ما أرجو بذلك برّك ولا حمدك ولكنّ الله بالّذي انوي عليهم وزعمت أنك لست بناس بري فاحبس ايّها الانسان! برّك عنّي فانّي حابس عنك برّي.

و سألت أن احبب الناس اليك... كيف؟ وقد قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الاعلام ... فما انسى من الأشياء فلست بناس اطّرادك حسينا من حرم رسول الله (صلّي الله عليه وآله وسلّم) إلي حرم الله وشبيرك الخيول إليه. فمازلت بذلك حتي امتحنته إلي العراق فخرج خائفاً يترقب فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب إليه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً فاغتنمتم قلّة أنصاره واستئصال أهل بيته وتعاونتم عليه كأنّكم قتلتم أهل بيت من الشرك والكفر...و قد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثاري...»

- **أقوال ولده معاوية بن يزيد** : عندما توفي يزيد ، وصفه ابنه معاوية قائلا: «إنّ هذه الخلافة حبل الله وأن جدّي معاوية نازع الأمر أهل هو من هو أحقّ به منه علي بن ابي طالب، وركبت بكم ما تعلمون... ثمّ قلّد أبي الأمر وكان غير أهل له ونازع ابن بنت رسول الله (صلّي الله عليه وآله وسلّم)....إنّ من أعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه وقد قتل عترة رسول الله (صلّي الله عليه وآله وسلّم) وأباح الخمر وخرّب الكعبة .... فشأنكم أمركم. والله لئن كانت الدنيا خيرا... ولكن كانت شرّاً فكفى ذُرية أبي سفيان ما أصابوا منها».

- **إرسال الرؤوس إلى يزيد:** يقول البلاذري : « نصب ابن زياد رأس الحسين بالكوفة وجعل بدار به فيها، ثم دعا زحر بن قيس الجعفي فسرّح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه وأهل بيته إلي يزيد بن معاوية».

معارضة أهل المدينة

قام والي المدينة بإرسال وفد من أهلها إلى يزيد، حيث وفدوا عليه في عام ٦٢ للهجرة، إلا أنه لم يصح إسناد أي رواية عن هذا الوفد وما رأوه.

بعد عودة الوفد، خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية وانضموا إلى عبد الله بن الزبير. واتهموا يزيد بشرب الخمر وترك الصلاة ورأسوا عليهم عبد الله بن مطيع وعبد الله بن حنظلة ومعقل بن سنان الأشجعي.

ثم ذهب عبد الله بن مطيع إلى محمد بن الحنفية ليخلع بيعة يزيد لكنه رفض. ثم اتجهوا إلى الوالي وحصروه مع بني أمية في دارمروان بن الحكم وخلعوا يزيد. بعدها كتب مروان بن الحكم إلى يزيد يخبره أنهم محاصرون.

لما وصل الخبر إلى يزيد جهز جيشًا كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة، وترجاه عبد الله بن جعفر وصخر بن عامر، أن لا يرسله فأجاب عبد الله بن جعفر: «أنا أجيبك فيهم إلى ما تريد، إن ابن الزبير حيث رأيت، وقد نصب لنا الحرب، وأنا أبعث الجيوش، وآمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقًا ولا يقاتلهم، فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم وجاوزهم إلى ابن الزبير، وإن أبوا أن يقروا قاتلهم».[٥٥] لما وصل خبر تجهيز الجيش إلى مسامع أهل المدينة ضيقوا الحصار على بني أمية ثم أخرجوهم.[٥٦] وبعد ذلك قسموا أنفسهم إلى فريقين كل فريق عليه أمير. وأرسلوا من يردم الآبار التي في طريق المدينة، لكيلا يستسقوا. ثم حفروا خندقًا ليقاتلوا من داخل المدينة.[٥٧]

رفض كبار الصحابة وآل البيت للخروج وتحذيرهم لأهل المدينة

- تحذير عبد الله بن عمر للناس من الخروج:

جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع، حين كان من أمر الحرة ما كان، زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة. فقال: إني لم آتك لأجلس. أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة، لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية"

رفض محمد بن الحنفية للخروج ودفاعه عن يزيد:

قال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدّى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنّعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركائه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه. فقال لهم أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال {إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} ولست من أمركم في شيء. قالو: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نولّيك أمرنا. قال: ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً. فقالوا: فقد قاتلت مع أبيك. قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه. فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا. قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقاماً نحض الناس فيه على القتال. قال: سبحان الله!! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه؟ إذاً ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذاً نكرهك. قال: إذاً آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق

المعركة

بايع الناس عبد الله بن حنظلة على الموت. بعد وصول مسلم بن عقبة إلى المدينة قام بتوزيع جيشه، وتم إقناع بني حارثة أن يدخلوهم المدينة من عند بيوتهم.

فلما دخلوا تشتت جيش أهل المدينة وهربوا إلى بيوتهم ليحموا أهلهم.

قام قادة الجيش المدني بالذهاب إلى المنفذ الذي توافد منه أهل الشام في محاولة لوقف دخولهم، مما أعطى الفرصة لأهل الشام في ردم الخندق والدخول من هناك بعد انسحاب الناس.

وكان عدد القتلى ٧٠٠ رجل منهم ٤ من الصحابة كما قال الإمام مالك.

انتهبت بعض البيوت بعد المعركة من بيوت أهل المدينة، وأدى هذا لترك أحمد بن حنبل رواية الحديث عن يزيد. وأتي بعلي بن الحسين فأكرمه حيث لم يخرج أحد من آل البيت ولا بني عبد المطلب مع أهل المدينة. ثم بايع الناس كلهم ليزيد بيعة جديدة.

معارضة عبد الله بن الزبير

بعد وفاة الخليفة معاوية تثاقل الصحابي عبد الله بن الزبير عن بيعة يزيد وشتمه، فغضب يزيد وحلف ألا يؤتى به إلا في الأغلال، وأرسل إليه وفداً يضم: الصحابي النعمان بن بشير، عبد الله الأشعري وعبد الله الفزاري وأرسل معهم كتاباً يحلف فيه عليه إلا أن يأتي وفي يده الأغلال وأرسل قيداً من فضة وبرنساً ليلبسه عليه فلا يظهر، إلا أن عبد الله بن الزبير رفض

حملة عمرو بن الزبير

بعد رفض عبد الله بن الزبير بيعة يزيد، ورفضه الصلاة خلف والي مكة والحج معه، جمع كل من دعمه من أهل مكة فكان يصلي بهم ويستشير كبارهم ويشاورهم ويحج بهم، قرر يزيد أن يرسل من يقبض على عبد الله بن الزبير ويلزمه بتنفيذ حلفه فأرسل إلى الوالي بإرسال الجند فاقترح عمرو بن الزبير بن العوام - شقيق عبد الله بن الزبير - أن يتم تعيينه على الجند فتم له ما أراد.

قاد عمرو بن الزبير ألف رجل واتجه لمكة ثم أرسل ٧٠٠ من جنده إلى ذي طوى بقيادة أنيس بن عمرو الأسلمي، وبعد ذلك قابل أخاه عبد الله بن الزبير وطلب منه أن

يمتثل ليمين الخليفة، إلا أن عبد الله بن الزبير رفض أن يلبس الأغلال، وطلب من أخيه أن يراجع يزيد.

قبل ذلك أرسل عبد الله بن الزبير جيشًا استطاع الإحاطة بجند أنيس وقتله، كما طلب عبد الله بن الزبير من مصعب بن عبد الرحمن أن يهاجم جند عمرو بن الزبير فاستطاع هزيمتهم، بعد ذلك هرب عمرو إلى إحدى البيوت ثم استجار بأخيه عبيدة بن الزبير فأجاره وأخذه إلى عبد الله بن الزبير، إلا أن عبد الله اقتص منه لكل من آذاه في المدينة.

ومات عمرو بن الزبير أثناء الاقتصاص منه.

حملة الحصين بن النمير

بعد واقعة الحرة، استمر الجيش بقيادة مسلم بن عقبة حتى وصلوا إلى المشلل حيث توفي مسلم.

تولى الحصين بن النمير السكوني قيادة الجيش حتى وصلوا إلى مكة فنشر جيشه وحاصروها لأكثر من شهر بدون قتال.

بدأ القتال في منتصف شهر صفر حيث حاول الحصين أن يتقدم بجيشه. وبالفعل استطاع الحصين أن يسيطر على جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان، ثم تقدم وسيطر على جميع المناطق ما عدا المسجد الحرام الذي كان يحتمي فيه عبد الله بن الزبير.

احتراق الكعبة

بعد أن سيطر الحصين على جبلي أبي قبيس وقعيقعان قام بتثبيت المنجنيق عليها، فقام عبد الله بن الزبير بوضع الألواح حول الحرم وكان من معه ينامون في الخيام بجانب الكعبة بعد اشتداد القتال. وفي ليلة الحريق كانت الريح شديدة فعلقت النار بالخيام والفرش بجانب الكعبة وامتد الحريق إليها ولم يقدروا على إطفاء الحريق. وقد تسبب

الحريق بإيقاف أحداث المعركة حيث ذهل الفريقان بما حصل، فقال أحد جنود أهل الشام:«هلك الفريقان والذي نفس محمد بيده».

وسجد عبد الله بن الزبير وأخذ يدعو ويقول:«اللهم إني لم أتعمد ما جرى، فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك».

وكان احتراق الكعبة بعد موت يزيد بخمسة أيام وقبل وصول خبر موت يزيد بأحد عشر يومًا، أي في ٢٠ ربيع الأول.

وفاة يزيد

توفي يزيد في حوارين ومات في ١٥ ربيع الأول ٦٤ للهجرة الموافق ١١ نوفمبر ٦٨٣.

حول خلافته

رأي علماء السنة: الصحابي عبد الله بن عمر:«إنا قد بايعنا هذا الرجل ببيع الله ورسوله»، أبو بكر بن العربي المالكي: «إلا أننا نقول: إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى ولا يخص بها أحداً من قربته؛ إلا أنه عدل إلى ولاية ابنه وعقَد له البيعة وبايعه الناس، وتخلّف عنها من تخلَّف؛ فانعقدت البيعة شرعًا؛ لأنها تنعقد بواحد، وقيل باثنين.فإن قيل: تنعقد لمن فيه شروط العدالة؛ قلنا: ليس السن من شروطها، ولم يثبت أن يزيد يقصر عنها. فإن قيل: كان منها العدالة والعلم، ولم يكن يزيد عدلاً ولا عالمًا، قلنا: بأي شيء نعلم عدم علمه أو عدالته؟ ولو كان مسلوبهما لذَكَر ذلك الثلاثة الفضلاء الذين أشاروا عليه بأن لا يفعل ذلك، وإنما رموا الأمر بعيب التحكم، وأرادوا أن تكون شورى» وقال عبد الغني المقدسي الحنبلي:«خلافته صحيحة، وقال بعض العلماء: بايعه ستون من أصحاب رسول الله؛ منهم ابن عمر» في المقابل يرى علماء الشيعة عدم صحة بيعة يزيد، وأنها من حق الحسين بن علي.

روايته للحديث

أخذ يزيد الحديث من والده معاوية صاحب الرسول فحفظ منه، وسمع من يزيد أقاربه كابنه وأمه وابن عمه، وذكره أبو زرعة في الطبقة العليا التي تلي الصحابة، وله حديث في مراسيل أبي داود.

إلا أن المحدثين تركوا الحديث عنه وأسانيده؛ لأنهم نقموا عليه بسبب الأحداث التي حصلت في عهده، رغم أن الإسناد إليه ظل متصلاً حتى زمن ابن الجوزي على الأقل، حيث قال: (وإسنادنا إليه متصل).

مروان بن الحكم

مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي القرشي رابع خلفاء الدولة الأموية (٢ هـ-٦٥ هـ / ٢٨ مارس ٦٢٣ - ٧ مايو ٦٨٥ م) في دمشق. (حكم: ٦٤ هـ-٦٥ هـ/ ٦٨٣-٦٨٥م)، ومؤسس الدولة الأموية الثانية.

رغم قصر فترة حكمه، لكن يمتاز مروان بن الحكم بأنه مؤسس السلالة التي حكمت العالم الإسلامي بين عام ٦٨٥ و٧٥٠م، ومن ثم حكمت الأندلس بين عامي ٧٥٦ و١٠٣١م.

شخصيته وحياته

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي، أبو عبد الملك ويقال أبو القاسم ويقال أبو الحكم، المدني. وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانية [٢] البعض يجعله من صغار الصحابة والبعض يجعله من كبار التابعين. ولد عام ٢ هـ، وقيل: ٤ هـ بمكة المكرمة وتوفي سنة ٦٥ هـ بدمشق.

وهو أحد الخلفاء الأمويون في دمشق وترتيبه الخليفة الرابع، ولقد كان فقيهاً ضليعاً، وثقة من رواة الحديث. وروى له البخاري وأصحاب السنن الأربعة.

ولايته على المدينة ثم خروجه لدمشق

كان كاتبا لعثمان بن عفان أثناء خلافته، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ولاه معاوية على المدينة ثم عزله ثم ولاه ثانية ثم عزله.

خلافته

بويع له بالخلافة من قبل بني أمية بعد موت معاوية بن يزيد. كان نفوذ الأمويين قد ضعف حيث بايعت أغلب الأقاليم الخليفة عبد الله بن الزبير. حتى الشام، معقل نفوذ الأمويين كانت قد انقسمت بين مبايعين لمروان بن الحكم ومبايعيين لعبد الله بن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الذي سيطر على دمشق. هاجم مروان جيش الضحاك فواقعه بمرج راهط وهزمه. بعد السيطرة على الشام، خرج مروان بجيشة إلى مصر التي كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير ودخلها وولى ابنه عبد العزيز بن مروان عليها. بسقوط مصر التي كانت تمد عبد الله بن الزبير بالغلال في مكة أصبح وضعه ضعيفاً.

بعث مروان بجيشين : الأول إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير والثاني لمحاربة مصعب بن الزبير شقيق عبد الله ووالیه على العراق. هُزم الجيش الأول بينما لم يحقق الجيش الثاني أهدافه.

مات مروان وقد نجح في اخضاع الشام ومصر للأمويين بينما فشل في السيطرة على الحجاز والعراق.

تولى ابنه عبد الملك بن مروان الخلافة من بعده ونجح في القضاء على عبد الله بن الزبير وبسط سيطرته على كافة الدولة الإسلامية وفتح المغرب العربي.

مروان وآل البيت

قال جويرية بن أسماء: لما مات الحسن بكى مروان في جنازته، فقال له الحسين بن علي: "أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟" فقال مروان: "إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا" وأشار بيده إلى الجبل.

روى الإمام قال الأصمعي: لم يكن للحسين بن علي عقبٌ إلا من ابنه علي بن الحسين، ولم يكن لعلي ولد إلا من أم عبد الله بنت الحسن وهي ابنة عمه، فقال له مروان بن الحكم: «أرى نسل أبيك قد انقطع، فلو اتخذت السراري لعل الله أن يرزقك منهن»، فقال علي بن الحسين: «ما عندي ما أشترى به السراري»، قال: «فأنا أقرضك.» فأقرضه مئة ألف درهم، فاتخذ السراري، وولد له: زيد وعلي والحسين وعمر الأشرف.

عبد الملك بن مروان

أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي (٢٦ هـ - ٨٦ هـ / ٦٤٦ - ٧٠٥م) الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية والمؤسس الثاني للدولة الأموية.

ولد في المدينة وتفقه فيها علوم الدين، وكان قبل توليه الخلافة ممن اشتهر بالعلم والفقه والعبادة، وكان أحد فقهاء المدينة الأربعة، قال الأعمش عن أبي الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان».

استلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ الموافق ٦٨٤م، وحكم دولة الخلافة الإسلامية واحدًا وعشرين عامًا.

تسلم عبد الملك بن مروان حكم الدولة الأموية في وقت كانت الفتن والاضطرابات والانقسامات تعصف بها. في الكوفة كان أنصار الحسين يشعرون بالتقصير والذنب بعد كارثة كربلاء، وعندما عم الاضطراب أنحاء بلاد العالم الإسلامي بعد موت يزيد بن معاوية خرجت من الكوفة ثورة التوابين في ٥ ربيع الثاني ٦٥ هـ وفي منطقة عين الوردة استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على ثورتهم. ما إن أُخمدت ثورة التوابين حتى خرج المختار الثقفي بشعار يا لثارات الحسين، واصطدم مع الأمويين في أكثر من وقعة انتصر فيها، لكن مصعب بن الزبير كفى عبد الملك مواصلة قتاله واستطاع قتله وإخضاع الكوفة تحت سلطة ابن الزبير. كان الحجاز وبقية بلاد المسلمين

إلا دمشق وجزءًا من الأردن تدين لعبد الله بن الزبير، وأدى زوال خطر المختار الثقفي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، فخرج عبد الملك إلى العراق، وانتصر على مصعب في معركة دير الجاثليق عام ٧٢ هـ، ثم سارع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمواجهة عبد الله بن الزبير، فحاصر الحجاج مكة، وانتهى الحصار بمقتل عبد الله بن الزبير ودخول مكة تحت سيادة بني أمية على الحجاز عام ٧٣ هـ، وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير وتوحد العالم الإسلامي تحت ولاية عبد الملك بن مروان وأصبح الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

بعد أن استشرى خطر الخوارج عيَّن عبد الملك المهلب بن أبي صفرة قائدًا لمحاربتهم، وبعد سلسلة طويلة من المعارك دامت ثلاث سنوات تمكن من التغلب على الخوارج الأزارقة عام٧٨ هـ. ثم أمر عبد الملك الحجاج بن يوسف ببدأ عمليات التصدي للخوارج الصفرية، وتمكن بعد عدة معارك من التغلب عليهم. ما إن استتب الأمر لابن مروان حتى قامت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ واستمرت حتى عام ٨٣ هـ، وانتهت بوقعة دير الجماجم التي تصدى لها الحجاج وانتهت الثورة بانتحار ابن الأشعث بعد هروبه من المعركة في سيجستان. لم يكن لعبد الملك نشاط كبير في الفتوحات الإسلامية: ففي جبهة المشرق الإسلامي ظلت فتوحات المسلمين على ما كانت قبل توليه الخلافة، أما الجبهة البيزنطية فقد عانى المسلمون من هجمات النصارى المردة، وبسببهم عقد عبد الملك مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة عام ٧٩ هـ الموافق ٦٨٩م لمدة عشر أعوام. في حين كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدِّي لفتوحات عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي لأفريقية، وإخضاع البربر لسلطة

الدولة، واستطاع القائد حسان بن النعمان الغساني الاستيلاء على قرطاجنة البيزنطيين، والقضاء على جيش البربر بقيادة الكاهنة ديهيا.

كانت خلافة عبد الملك بن مروان مليئة بالصراعات والثورات والحروب التي أخذت جُلَّ وقته وجهده، وعلى الرغم من ذلك تذكر كتب التاريخ عددًا من إنجازاته أهمها: سك أول دينار ذهبي إسلامي خالص عام ٧٧ هـ والاستغناء عن كافة الصور والرموز الملكية والمأثورات الدينية المسيحية التي يحتملها الدينار البيزنطي. وتعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية، إذ يُعد أول من بدأ تعريب الدواوين في التاريخ الإسلامي.

بالإضافة لقيامه بجهود كبيرة في العمارة والبناء: فقام ببناء الكعبة على بناء قريش، وبناء مسجد قبة الصخرة، بالإضافة لبناء مدينتي واسط في العراق وتونس في الشمال الإفريقي.

نسبه ونشأته

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنانالأموي القرشي. أبوه مروان بن الحكم رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق، ومؤسس الدولة الأموية الثانية، بويع بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، في وقت كان نفوذ الأمويين قد ضعف، وبايعت أغلب الأقاليم عبد الله بن الزبير خليفةً للمسلمين. استطاع مروان السيطرة على الشام، وخرج بجيشه إلى مصر التي كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير ودخلها وولى ابنه عبد العزيز عليها، لكنه فشل في السيطرة على الحجاز والعراق. توفي سنة ٦٥ هـ. أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية الأموية القرشية، أمها فاطمة بنت عامر الجمحي. قُتِل أبوها يوم أحد، وأدركت

عائشة حياة النبي محمد نحو سبع سنين، ولم يبق بمكة في حجة الوداع أحد من قريش إلا أسلم وشهدها.

ولد عبد الملك في المدينة في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٦ هـ وهي ذات السنة التي ولد فيها ثاني خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية. أول من سمي باسم عبد الملك في الإسلام هو عبد الملك بن مروان، وقيل أول من سمي عبد الملك وعبد العزيز هما أبناء مروان بن الحكم.

كان عبد الملك ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، وربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، ولذلك كان يقال له: أبو الذبّان،وكان أبيض اللون ليس بالنحيف ولا البدين، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف، أبيض الرأس واللحية. كان عبد الملك قبل توليه الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، قال نافع: «لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشد تشميرًا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»، وقال الأعمش عن أبي الزناد: «كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك قبل أن يدخل الخلافة»، وقال الشعبي: «ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه، ولا شعرًا إلا زادني فيه». روى عبد الملك الحديث عن أبيه ومعاوية بن أبي سفيانوعن أم المؤمنين أم سلمة وعن بريرة مولاة عائشة بنت أبي بكر، وعن جماعة من التابعين. وممن روى عن عبد الملك البخاري في كتابه الأدب المفرد، والإمام الزهري وعروة بن الزبير وخالد بن معدان وهو من فقهاء التابعين وعبَّادِهم، ورجاء بن حيوة أحد الأعلام.

قال ابن كثير: «وسمع من عثمان بن عفان، وهو ممن سار بالناس في بلاد الروم سنة اثنين وأربعين، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والصلحاء والعبَّاد، وروى الحديث عن

أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبربرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة منهم: خالد بم معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان».[١٤] كان عبد الملك حبوبًا ومرغوبًا من عمومته ومن كبار بني أمية، وذُكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسًا يومًا ومعه عمرو بن العاص ومر بهما عبد الملك فقال معاوية: ماآدب هذا الفتى وأحسن مروءته، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالًا ثلاثًا، أخذ بحسن الحديث إذا حدث، وحسن الاستماع إذا حدث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المئونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروته.

سيرته قبل الخلافة

كان أول حادث سياسي شهده عبد الملك هو حادث مقتل عثمان بن عفان، وكان عمره ذلك الحين عشر سنوات. وكان أول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد عينه عاملًا على هجر، ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاةزيد بن ثابت، وشارك في الجهاد على رأس حملة إلى أرض الروم سنة ٤٢ هـ، وكان ضمن الجيش الذي غزا إفريقيا مع معاوية بن خديج، وكلفه بفتح جلولا في الشمال الأفريقي. في عهد يزيد بن معاوية كانت علاقته بالزبيريين تسير بشكل جيد، فكان يقول عن ابن الزبير: ما على الأرض اليوم خيرًا منه، وكانت علاقته بمصعب بن الزبير حسنة.

بعد وفاة يزيد استلم سدة الحكم ابنه معاوية بن يزيد، الذي لم تدم فترة حكمه قبل موته عدة أشهر على قول، وأربعين يومًا على قولٍ آخر، في هذه الفترة بدأت الحركات المناوئه للأمويين تظهر على السطح، وبدأ الانقسام في العالم الإسلامي يستشري، ففي العراق نشأة ثورة التوابين المطالبة بدم الحسين بن علي، وفي الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير استقلاله بالخلافة عن تبعية بني أمية. كانت هذه الأحداث وتسارعها

محركًا لاجتماع بني أمية في دمشق، بعد أن أحسوا أنهم أسرى القوى القبلية المتنافسة والمتصارعة سياسيًا وعسكريًا، فالحزب اليمني بقبيلته كلب النافذة في البلاط الأموي بزعامة حسان بن مالك الكلبي كانت متشددة بالحفاظ على امتيازاتها في ظل الدولة الأموية، وخشيت من انتقال الخلافة إلى الحجازيين. أما الحزب القيسي فقد كان مستاءً من محاربة يزيد لأهل المدينة، وقد وصل زعيمها الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة منحته الأحداث السياسية بعد وفاة معاوية الثاني مركزًا متقدمًا من خلال منصبه كأمير بلاد الشام حيث أتيحت له الفرصة أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية، كما وجد القيسيين في دعوة ابن الزبير فرصة تمكنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع القوة من أيديهم، وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت آرائهم بين ثلاثة مرشحين: فقد أيد حسان بن مالك خالد بن يزيد بن معاوية، ومال بعض القادة إلى مروان بن الحكم، وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد.

اتفق بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة ترأسه حسان بن مالك، وكان مروان بن الحكم الأوفر حظًا لشيخوخته وكبره وعظم تجربته. انتهى المؤتمر لمصلحة ابن الحكم حيث اختير بإجماع الحاضرين، وخرج الكلبيون ممن أيدوا خالد بن يزيد بترضية حيث اختير مرشحهم وليًا للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد. بذلك انتقل الملك والخلافة في البيت الأموي من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني. استاء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فغادر دمشق إلى مرج راهط، وعسكر هناك وانضم إليه النعمان بن بشير والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين. خرج مروان بن الحكم ومعه بني أميه وأنصاره لقتال القيسيين، وجرت بين الطرفين مفاوضات لتسوية الموقف، وعقد صلح بين الطرفين استمر عشرين يومًا، لكنه انهار لما وصلت أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان بن

الحكم فيها. في شهر ذي القعدة عام هـ الموافق ٦٨٤ والتقى الجمعان في مرج راهط، وانتهت المعركة بهزيمة القيسيين وقتل زعيمهم الضحاك، وهروب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيساء وتحصن بها، فلما جاءت خيول بني أمية فر منها إلى العراق، واستتب الأمر لمروان في الشاموفلسطين.

أما عن دور عبد الملك السياسي في عهد والده مروان بن الحكم، فقد تولى إمارة فلسطين، ولكنه كان يبعث نائبًا عنه وهو روح بن زنباع وذلك حتى يبقى في دمشق قريبًا من إدارة الدولة ولمساعدة والده هناك، حيث كانت الدولة في الفترة التي تولى فيها والده الحكم محاطة بالأعداء والخصوم من الداخل والخارج، ثم تولى إمارة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر. في شهر رمضان من عام ٦٥ هـ توفي مروان بن الحكم ولم يحقق هدفه بإعادة الحجاز والعراق إلى الحكم الأموي، وكان ابن مروان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقنع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في مؤتمر الجابية من العهد لخالد بن يزيد ومن بعد لعمرو بن سعيد ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن.

الخلافة

بويع لعبد الملك بن مروان بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده في دمشق عام ٦٥ هـ. بايع بني أمية ابن مروان بالخلافة، لكن الوضع كان مختلفًا مع العلماء، فقد بايع بعض العلماء ابن مروان في الشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئًا أما العلماء الذين بايعوا عبد الله بن الزبير، أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة. اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا من عبد الملك، فهناك من خرج عليه مثل عبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري، وهناك من كان قريبًا منه ناصحًا له كقبيصة بن ذؤيب.

في بداية ولاية عبد الملك كان العالم الإسلامي منقسم بين أبع جماعات: فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر، وعبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز والعراق، والحركة العلوية في العراق بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وجماعة الخوارج. وأكبر ما يوضح هذا الانقسام في العالم الإسلامي أنه في موسم حج عام ٦٨ هـ ارتفعت أربعة ألوية: لواء عبد الملك بن مروان، ولواء محمد بن علي بن أبي طالبالمعروف بابن الحنفية، ولواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة، ولواء ابن الزبير.

توطيد الاستقرار الداخلي

القضاء على المعارضة العلوية

كان مروان بن الحكم قد جهز قبل وفاته جيشًا بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع زفر بن الحارث في منطقة الجزيرة، وعينه أميرًا على كل ما يفتحه، فلما كان في الجزيرة أتاه نعي مروان، وكتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله والده ويحثه على المسير إلى العراق. كان العراق إقليم مليء بالأحداث السياسية، فالكوفة كانت مركزًا لمعارضة السياسية، وكان أنصار العلويين يشعرون بالتقصير والذنب بعد كارثة كربلاء، لكنهم اضطروا للتهدئة طيلة حكم عبيد الله بن زياد، لكن عندما عم الاضطراب أنحاء بلاد العالم الإسلامي بعد موت يزيد بن معاوية وفرار ابن زياد، أخذ أنصار الحسين بن علي يتصلون ببعضهم البعض لوضع خطة للثأر لدم الحسين، وبدأوا يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وانتهت الاجتماعات بقولهم: «أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه»، وغلب عليهم اسم التوابين وكان شعارهم الثأر للحسين.

كتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان أمير المدائن يدعوه للانضمام لدعوتهم فاستجاب له، وقَبِل الدخول معه في ثورته ودعوته، فزاد ذلك الأمر التوابين قوة

وعزمًا ونشاطًا، ثم أنهم أرادوا استعجال الخروج ولكن سليمان ثبطهم حتى لا يكشف أمرهم. في هذا الوقت أخرج أهل الكوفة عامل ابن زياد عليهم واستقبلوا عامل ابن الزبير حيث أن ابن الزبير قد استفحل أمره ودانت له كل البلاد عدا الشام. أثناء الإعداد للثورة ظهرت على مسرح الأحداث شخصية أثرت بشدة على مجرى الأحداث وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان عند ابن الزبير، ولكنه ما لبث أن اختلف معه ثم خرج من مكة متوجهًا للكوفة وبدأ يدعو لخلافة محمد بن الحنفية ولقبه بالمهدي وأدى ذلك لتفرق صف أنصار الحسين وصاروا فرقتين: جمهورهم مع سليمان بن صرد للأخذ بثأر الحسين، والباقي مع المختار، وهذا الاختلاف وصلت أخباره لوالي الكوفة من قبل ابن الزبير فحذرهم من محاولة الخروج على الأمويين، لكن هذا التحذير أدى لاستعجال خروج سليمان ومن معه لقتال أهل الشام.

كان تاريخ خروج ثورة التوابين في ٥ ربيع الثاني ٦٥ هـ من معسكرهم في النخيلة، قام والي الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن يزيد ومن معه من أشراف أهل الكوفة بلقاء سليمان وجيشه قبل خروجهم لمحاولة إقناعهم بتأجيل فكرة الخروج حتى يجتمع عندهم الناس ويكثر عددهم وتقوى جيوشهم وتؤمن لهم مؤونة مافية للحرب، لأن أهل الشام خرجوا في جيش ضخم لحربهم، ولكن سليمان رفض الفكرة وأصر على الخروج. خرج جيش التوابين إلى الجزيرة للقاء أهل الشام، ومروا بطريقهم على قبر الحسين وظلوا يترحمون عليه ويستغفرون له، ثم واصلوا سيرهم، ومر جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات، ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيساء، وكانت هذه المدينة أبعد المناطق في اتجاه الشام التي اعترفت ببيعة ابن الزبير. فخرج لهم في الطريق زفر بن الحارث وكان واليًا على مدينة قرقيسياء وعرض عليه أن يقاتلوا أهل الشام على حد باب مدينته تحسبًا لحدوث هزيمة فيدخلوا في أمانه، وأن يتونوا حتى تتوحد صفوفهم مع صفوف ابن الزبير، لكن سليمان بن صرد رفض هذه العرض وأصر على

مواصلة السير للقتال، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة. سار جيش التوابين حتى نزل عند منطقة عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين، وخطب سليمان في جيشه ووعظهم وذكرهم بالآخرة والنية الصالحة، وأقبل جيش الشام وكان تعداده في أربعين ألفًا، وجيش التوابين أربعة آلاف، ودارت رحى حرب طاحنة لمدة ثلاثة أيام، ولكثرة جند الشام فقد أحاطوا بجيش التوابين من كل مكان ثم رشقوهم بالنبال والرماح حتى قتل قائدهم سليمان بن صرد وعددًا من قادته، وفي جنح الليل من اليوم الثالث للمعركة انسحب جيش التوابين بقيادة رفاعة بن شداد إلى الكوفة. أدت هذه الثورة لظهور حركة المختار الثقفي، حيث قام بأمر شيعة العراق بعد وفاة سليمان بن صرد.

وقد علق الذهبي على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: «كان ديِّنًا عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسُمُّوا جيش التوابين»، وقال ابن كثير في وصف جيش التوابين: «لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين، وكان عمر سليمان بن صرد رضي الله عنه يوم قتل ثلاثًا وتسعين سنة».

تبعت حركة التوابين حركة أخرى نسبت إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، وعرفت بالمختارية، تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شهار التشيع العلوي، وساهمت إلى حد كبير في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية. ظهر المختار في ميدان السياسة عام ٦٤ هـ، حيث توجه إلى مكة قادمًا من الكوفة بعد مقتل الحسين، واتصل بابن الزبير، ونسق معه العمل ضد الأمويين على أساس شروطٍ ثلاث: أن لا يقضي أمرًا دونه، وأن يكون أول من يأذن له، وإذا استعان به على أفضل أعماله. لكن الأمور لم تكن حسنة بين الطرفين ما أدى لعودة المختار إلى الكوفة في الخامس

والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤ هـ. في الوقت الذي خرج فيه جيش التوابين إلى عين الوردة، كان المختار وراء قضبان السجن بفعل نشاطه المعادي ضد ابن الزبير، لكنه لم يلبث أن غادر السجن، وقاد حركةً سياسية دينية بالمطالبة بدم الحسين وبمناداته بالمهدية بشخص محمد بن الحنفية وأطلق عليه لقب المهدي.

استطاع المختار ضم بقايا جيش التوابين، بالإضافة لبعض القبائل اليمنية ولا سيما قبيلة نخع وزعيمها إبراهيم بن الأشتر النخعي. استطاع المختار الاستيلاء على الكوفة بعد أن هزم جيش واليها عبد الله بن مطيع، ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل ليحكموا باسمه. حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء على البصرة، حتى يتفرغ لابن مروان وجيشه في الشام، لكنه فشل لما اضطرت فرقته العسكرية التي أرسلها للتصدي لابن زياد في الموصل من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة، ترتب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه في الكوفة من قبل الأشراف، إلا أنه قمعها بسرعة، ثم بدأ مهمته بالثأر من قتلة الحسين. في العاشر من شهر محرم عام ٦٨ هـ أرسل المختار جيشًا بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المرسل من قبل ابن مروان نحو العراق، واستطاع الأشتر الانتصار على الأمويين في معركة جرت عند نهر الخازر، نتج عن المعركة مقتل عبيد الله بن زياد ومعه الحصين بن نمير السكوني، ومع تعاظم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار سيطر على شمالي العراق والجزيرة، ثم أعد جيشًا لقتال مصعب بن الزبير لانتزاع البصرة منه، لكن انضمام قائده ابن الأشتر إلى الأشراف في البصرة أثر على قواه وعدته وأصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب، ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدد مصعب الحصار عليه، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة.

القضاء على خلافة ابن الزبير

كانت الأجواء السياسية في المدينة غير مستقرة ويشوبها الكثير من المعارضة والسخط على بني أمية، كان مُبتدأ الخلاف بين أهل المدينة وبني أمية عندما قاممعاوية بن أبي سفيان بأخذ البيعة لابنه يزيد، فقد عارض الكثير من أبناء الصحابة هذه البيعة لإحساسهم بانتهاء العهد الراشدي المبني على الشورى، وزاد الأمر سوءً مقتل الحسين بن علي في كربلاء، قام بعد ذلك وفد من أهل المدينة بزيارة ليزيد بن معاوية، وعلى الرغم من أنهم فقدموا عليه ولم يسألوه حاجة إلا قضاها، إلا أنهم رجعوا المدينة ذامين له، مجمعين على خلعه. عندما وصل خبر مقتل الحسين إلى الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ بأخذ البيعة لنفسه من الناس في مكة، وبعد أن كَثُر الحديث في المدينة عن يزيد، أرسل يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة يحذرهم الفتنة والخروج عن الطاعة، ويذكرهم الطاعة، فأبوا عليه، ثم أعلنوا خلع يزيد، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي يزيد، ثم حاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي الألف شخص. فلما علم يزيد بن معاوية بذلك أرسل إليهم جيشًا عليه مسلم بن عقبة المري، وأوصى إن حدث له حدث فالأمير من بعده الحصين بن نمير السكوني، وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش حتى وصل إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام فأبوا إلا القتال، وكان عليهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان الأشجعي، وعبد الرحمن بن زهير بن عوف الزهري ابن أخي عبد الرحمن بن عوف، وكان مجيء مسلم عن طريق الحرة الشرقية، ووقعت معركة بين الجيشين سميت وقعة الحرة وكانت في أواخر ذي الحجة من سنة ٦٣ هـ، قتل في هذه الوقعة أكثر سادة أهل المدينة من الصحابة وأبناء الصحابة، واستحلت المدينة من قبل الجيش الأموي ثلاثة أيام. عندما انتهى مسلم بن عقبة المري من المدينة اتجه بجنده نحو مكة يريد عبد الله بن الزبير، وخلف على المدينة روح بن

زنباع الجذامي، لم يقطع مسلم مسافة بعيدة عن المدينة حتى مات، فتولى أمر الجند بعده الحصين بن النمير السكوني حسب وصية يزيد بن معاوية فسار إلى مكة، فقاومه ابن الزبير، واستمر القتال شهري محرم وصفر من سنة ٦٤ هـ وفي أوائل ربيع الأول رميت الكعبة بالمنجنيق، ثم جاءهم نعي يزيد في ١٤ من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ، انصرف على أثره جيش الشام إلى بلدهم تاركين الحجاز لولاية ابن الزبير.

بعد وفاة يزيد دان الحجاز لعبد الله بن الزبير، ثم دعا لنفسه بالخلافة، ثم أخذ يتوسع حتى ضم إليه بلاد المسلمين كلها إلا دمشق وجزءًا من الأردن، وبايعه في أول الأمر رؤوس الخوارج، وكذلك بايعه المختار الثقفي، وأُخرج بنو أمية من المدينة إلى الشام، فاجتمعو إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد، ودُعي لابن الحكم بالخلافة فبايعه أهل دمشق، ثم توسع من دمشق فضم أرجاء بلاد الشام ومصر.

تخطيط اسم أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، تولى الخلافة مدة تسع سنوات قبل أن يقتل في مكة عام ٧٣ هـ

أدى زوال خطر المختار الثقفي من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير. أدرك عبد الملك أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكمًا إلى إسقاط النظام الزبيري كاملًا، لذلك خرج عبد الملك على رأس جيش كبير إلى العراق، وكان ذلك بعد أربع سنين من القضاء على المختار. وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أمرائه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشا فأبى، وقال: «لعلي أبعث رجلا شجاعا لا رأي له، أو من له رأي ولا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصرًا بالحرب وشجاعة، وإن مصعبا في بيت شجاعة، أبوه أشجع قريش، وأخوه لا تجهل شجاعته، وهو شجاع، لا علم له بالحرب، وهو يحب الدعة والخفض، ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي». فسار بنفسه حتى نزل بلدة مسكن، وجعل على مقدمة

جيشه أخاه محمد بن مروان بن الحكم، وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وزحف مصعب نحو باجميرا وعلى مقدمة جيشه إبراهيم بن الأشتر النخعي، ثم بدأ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وقد قبلوا التخلي عن مصعب والانضمام إلى عبد الملك. كان عبد الملك يسعى لإيجاد مخرج من قتال مصعب، فأرسل إليه رجلاً من كلب وقال له: «أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له: يدع دعاءه إلى أخيه، وأدَعُ دعائي إلى نفسي، ويجْعَل الأمر شورى». لكن مصعب رد عليه بقول: «السيف بيننا». ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد بن مروان ليقول له: «إن ابن عمك يعطيك الأمان». فقال مصعب: «إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا». ثم وقعة المعركة وأمد مصعب قائده إبراهيم بن الأشتر بعتاب بن ورقاء الرباحي، وهو من الذين كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس، فلما انهزم ثبت ابن الأشتر فقتل، ثم تخلى أهل العراق عن مصعب حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال، وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطمن نفسه وقال: «لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من إلقائه يده، ومن الذلة لعبيد الله بن زياد». وظل يقاتل حتى قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق في شهر جمادى الآخرة سنة ٧٢ هـ، فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: «واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا المُلْك عقيم». وبمقتل مصعب عادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية، وعين عبد الملك أخاه بشر بن واليًا عليها، وقبل أن يغادرها أَعَدَّ جيشًا للقضاء على عبد الله بن الزبير في مكة.

لم يتريث عبد الملك كثيرًا وأسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمواجهة عبد الله بن الزبير، وكان سبب تعيين الحجاج دون غيره أن عبد الملك لما أراد الرجوع إلى الشام قام إليه الحجاج بن يوسف فقال: «يا أمير المؤمنين إني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه وولني قتاله». فحاصر الحجاج مكة في عشرين ألفًا من جند الشام، فنصب المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك، وكان مع الحجاج قوم قدموا عليه من أرض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق، فقتلوا كثير من أهل مكة، وكان معه خمس مجانيق، فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الميرة فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وأخذت الحجارة تقع في الكعبة، وكانت الحرب سجال يكر جيش الشام على ابن الزبير، فيشد عليهم، وكان ابن الزبير يقول في القتال: «خذها وأنا ابن الحواري»، وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح، فقال: «والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعا، والله لا أسألهم صلحا أبدا». لما اشتد الحصار أخذ أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمنهم، وقل أصحاب ابن الزبير، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله ابن الزبير فأخذا لأنفسهما أمانًا من الحجاج فأمنهما، ودخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، فما رأيك، فقالت: «يا بني، أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك، يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودكم في الدنيا، القتل أحسن». فدنا منها وقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: «فانظري يا أماه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك،

وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضا ربي عز وجل، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني». فقالت أمه: اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك.

انتهى الحصار الذي استمر ستة أشهر وسبعة عشر يومًا، بمقتل عبد الله بن الزبير ودخول الحجاج مكة وفرض سيادة بني أمية على الحجاز في السابع عشر من جمادى الأولى عام ٧٣هـ الموافق ٦٩٢م.

وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير التي استمرت تسع سنوات، وتوحد العالم الإسلامي تحت طاعة عبد الملك بن مروان الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

التغلب على الخوارج

الخوارج هم فرقة خرجت على رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب، وكان خروجهم هو علة تسميتهم بهذا الاسم، حيث قال أبو الحسن الأشعري: «والسبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي لما حكم».

ظل الخوارج يتتابعون في الخروج بعد الإمام علي وخلال الحكم الأموي، وظل حالهم على نحو ما كانوا عليه خلال خلافة علي، ولما استتب الأمر لمعاوية واجتمعت عليه الكلمة كان الخوارج قد اشتعلت جذوتهم وثبت في أذهانهم فكرة الخروج على بني أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، فأخذوا في التجمع والتربص للخروج في أي فرصة كانت، إذ كان معاوية في نظرهم مغتصبًا للحكم لا شك في قتاله.

في فترة ولاية عبد الملك بن مروان أصبح الخوارج هم القوة التي بقيت خارج نطاق الصراع بينه وبين ابن الزبير، وظلوا يعارضون بني أمية لأنهم اعتبروهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدها العالم الإسلامي وسياسة

الحجاج القاسية في العراق دور كبير في تشجيعهم على التمرد على خلافة بني أمية. كان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير في مكة، لكن لم يلبث هذا التحالف أن انفرط بعد أن تبين لهم أن ابن الزبير يخالفهم الرأي، فغادروا مكة، وانقسموا إلى عدة فرق نتيجة وقوع صراعات داخلية بين صفوفهم تعود إلى اختلافات سياسية وعقائدية وقبلية، وأشهر فرق الخوارج التي نشأت في تلك الفترة الأزارقة والصفرية والنجدات.

استغل نافع بن الأزرق الأوضاع السياسية المتردية التي كانت تمر بها الخلافة الأموية، فبدأ نشاطه العسكري المنظم، واستطاع الاستلاء على البصرة، فجبى خراجها ونشر فيها عماله، لكنه لما علم باتفاق البصريين على التصدي له، اكتفى بإخراج أنصاره من السجون وغادر البصرة متوجهًا إلى الأهواز، حيث أصبحت منطلق وقاعدة هجماته. قُتل نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة عام ٦٥ هـ فخلفه عبيد الله بن الماحوز، في هذا الوقت عهد ابن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج، فتمكن من طردهم من الأهواز وقتل ابن الماجوز. لما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك بن مروان استعاد الأزارقة قوتهم واستعادوا السيطرة على الأهواز، وأصبحوا يشكلون خطرًا مباشرًا على البصرة والمناطق المجاورة لها. قام عبد الملك بن مروان بتعيين المهلب بن أبي صفرة لمحاربة الخوارج، بعدما استثناه من العقاب الذي أنزله بأعوان ابن الزبير، فأظهر المهلب إخلاصًا في حربه للخوارج الأزارقة، وتمكن بعد سلسلة طويلة من المعارك معهم والتي دامت ثلاث سنوات من القضاء عليهم وذلك عام ٧٨ هـ.

في الوقت الذي كان فيه الخوارج الأزارقة يهددون البصرة، كان الخوارج الصفرية يهددون الكوفة، وكانت هذه الفرقة تنسب إلى زياد بن الأصفر، وكانت نقطة انطلاقهم وقاعدة عملياتهمالموصل، وتمكنوا عام ٧٦ هـ من اجتياح العراق من

الموصل حتى الكوفة مرورًا بالمدائن وخانقين، بعد أن تغلبوا على جيوش الأمويين التي كانت تتصدى لهم. أحس عبد الملك بن مروان بأن القوى العراقية أصبحت غير قادرة على التصدي للصفرية، فسخر قوى من أهل الشام للتصدي لقوى الخوارج، وعين الحجاج بن يوسف قائدًا لعمليات التصدي والمطاردة، وتمكن بعد سلسلة من المعارك من التغلب عليهم، وكان آخر المعارك التي دارت بين الطرفين معركة نهر الدجيل عام ٧٧ هـ، حيث لم يصمد فيها الخوارج بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، وانسحب بمن معه عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر، وكان شبيب أول المنسحبين فغرق وهو يعبر النهر. شكل موت شبيب نقطة تحول هامة في حركة الخوارج الصفرية، لأن خليفته مسلم البطين لم يكن له الحماس نفسه بالرغم من استمراريته لتحدي الدولة، لكن سرعان ما ألقي القبض عليه وقتل بأمر الحجاج، فطلب الصفرية الأمان فمنحوا إياه.

هاجم خوارج اليمامة بقيادة نجدة بن عامر الحنفي البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي لشبه الجزيرة العربية، فاشتدت شوكتهم. عندما دخل العراق في سيادة ابن مروان تصدى لخطر خوارج اليمامة، وكانوا بقيادة أبي فديك عبد الله بن ثور، فأمر بحملة عسكرية ضدهم في المشقر من بلاد البحرين، دارت الدائرهم عليهم وقتل أبو فديك واضطر أتباعه للتسليم لبني أمية، وعلى هذا الشكل سقط خوارج اليمامة ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

القضاء على ثورة ابن الأشعث

تُعد ثورة عبد الرحمن بن الأشعث إحدى أهم الحركات المناوئة ضد الحكم الأموي. كان ابن الأشعث زعيم قبيلة كندة وأحد زعماء وسادات الكوفة، واستطاع استغلال العداء الكبير الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية، وأشعل به حرب كانت إحدى أخطر الحروب التي واجهة عبد الملك بن مروان.

بدأ الحجاج في التفكير في الفتوحات الخارجية بعد قضائه على الخوارج، وكان رتبيل ملك كابل قد هزم جيشًا أُرسل من العراق في عام ٧٩ هـ بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة، وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في عبد الملك بن مروان الذي كلف واليه في العراق الحجاج بإرسال جيش آخر لتأديب رتبيل. أعد الحجاج جيشًا كبيرًا وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث الذي لم تكن علاقته به جيدة، وعينه حاكمًا على سجستان وأمره بإخضاع رتبيل. في عام ٨٠ هـ اتجه الجيش بقيادة ابن الأشعث باتجاه سجستان، وهاجم معاقل رتبيل الذي انسحب أمامه، إلا أنه لم يتمكن من إخضاعه نظرًا لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، وقام ابن الأشعث بالتوقف عن مطاردة رتبيل والتراجع إلى بست وهي إحدى مدن سجستان، وأخبر الحجاج بهذا القرار. لم يكن الحجاج راضيًا عن توقف العمليات العسكرية ضد رتبيل، وأرسل إلى ابن الأشعث يأمره بالزحف وراء قوات رتبيل وهدده بالعزل إذا خالف ذلك، شعر ابن الأشعث باهانة كبيرة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، استشار ابن الأشعث أتباعه في أمر الحجاج فاستقر بهم الرأي على خلع الحجاج، وبايعوا ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق.

قبل مغادرة سجستان صالح ابن الأشعث رتبيل على أنه إن استطاع أن يزيل الحجاج فليس على رتبيل شيء من الخراج، وإن هُزم فعليه منعه، سار ابن الأشعث للعراق، ولما سمع الحجاج بذلك جهز جيوشا وطلب من عبدالملك إمداده، التقى الطرفان في أول معاركهما في تستر واقتتلوا قتالا شديدا انتصر فيه ابن الأشعث ودخل البصرة فبايعه أهلها، لكن الحجاج أعاد الكره انتصر في معركة الزاوية عام ٨٢ هـ، واضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة التي دخلها الحجاج. قام عبد الملك بن مروان بإرسال وفد لابن الأشعث يحمل عدة اقتراحات لحل القضية منها: عزل الحجاج عن العراق واستبداله بمحمد بن مروان، والمساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق، وتعيين

عبد الرحمن بن الأشعث على أية ولاية يختارها في العراق. لكن ابن الأشعث وقادته رفضوا عرض عبد الملك واعتبروه موقف ضعف، فالتقى الطرفان في وقعة دير الجماجم الفاصلة، اعتمد الحجاج في المعركة سياسة النفس الطويل والمصابرة في المعركة، فصف جيوشه أمام جيوش ابن الأشعث، ونشبت حرب أشبه ما تكون بحرب استنزاف بين الفريقين، وعلى الرغم من أن جيش ابن الأشعث تأتيهم الميرة من الأقاليم من الطعام والعلف وجيش الحجاج في ضيق شديد فقدوا فيه اللحم بالكلية، إلا أن الحجاج صابر في حربه، واستمر صبره حتى انقضت سنة ٨٢ هـ، ودخلت سنة ٨٣ هـ، والجيشان بينهما مبارزات فردية كل يوم وأحيانًا تحمل مجموعة من هذا الجيش على الآخر والعكس، حتى أن جيش ابن الأشعث كسروا أهل الشام بضعًا وثمانين مرة ينتصرون عليهم، ومع هذا كان الحجاج ثابتًا في مكانه، وكان يتقدم قليلًا قليلًا، حتى قرر القيام بعمل ينهي به ثورة ابن الأشعث، فأمر جنوده بالحمل مرة واحدة على موضع قوة جيش بن الأشعث وهم كتيبة القراء، وركز هجومه على هذه الكتيبة حتى قتل منهم الكثير، وكان ذلك سبب انهزام باقي جيش ابن الأشعث، الذي اضطرب نظامه واختلت صفوفه وفروا في كل اتجاه. فر ابن الأشعث ومن معه إلى بلاد الملك رتبيل ودخل في جواره وأكرمهم رتبيل وعظمهم. إلا أن الحجاج لم يترك ابن الأشعث وشأنه، وأجبر رتبيل على تسليمه له، ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر بأن القى بنفسه من فوق القصر، وانتهت ثورته بموته.

القضاء على ثورات أُخرى

عمرو بن سعيد الأشدق

لم يكن لعمرو بن سعيد الأشدق حضور في الميدان الإداري والسياسي مطلع العصر الأموي، لكن بدأ ظهوره منذ سعي معاوية إلى مبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فقام والده سعيد بن العاص أثناء ولايته على الحجاز بالعمل على تولية ابنه عمرو ديوان

الجند في المدينة، ثم اسند إليه ولاية مكة والطائف، واخذ عمرو في السعي لأخذ البيعة ليزيد في مكة، غير أن والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أظهر تهاونًا أمام أبرز المعارضين لخلافة يزيد، وهما: الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن الزبير بن العوام، اللذين رفضا البيعة، وغادرا المدينة المنورة متوجهين نحو مكة المكرمة، وهو ما حمل الخليفة يزيد على عزل الوليد بن عتبة عن ولاية الحجاز، وتولية عمرو بن سعيد إياها، وكان هدفه الرئيس القضاء على أية بادرة للثورة أو التمرد على خلافة يزيد بن معاوية، وأعلن عزمه التوجه إلى مكة المكرمة في حج عام ٦٠ هـ لإلقاء القبض على الحسين وابن الزبير، لكن الحسين اتجه إلى العراق وهناك واجه ابن زيادة ووقعة بينهما معركة كربلاء التي انتهت بمقتل الحسين. بعد وفاة يزيد بن معاوية ثم الوفاة السريعة لابنه معاوية الثاني، شغر منصب الخلافة، وبدأ عمرو بن سعيد بالدعاية لبيعة مروان بن الحكم بالخلافة، اتفق بني أمية في مؤتمر الجابية باختيار مروان بن الحكم خليفة لبني أمية، وخالد بن يزيد وليًا للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد. استطاع مروان بن الحكم تدعيم سلطته في الشام وضم مصر، وبدأ بالتخطيط لتوريث الخلافة إلى ابنه عبدالملك، واستطاع ارضاء أطراف البيت الأموي ببيعة عبد الملك، وبويع عبدالملك بالخلافة مع الوعد بالإبقاء على تسمية عمرو بن سعيد وليًا للعهد، لكن عبدالملك أخذ بتهميش عمرو، بينما استشعر عمرو نية عبدالملك بإقصائه عن ولاية العهد، فأعاد مطالبته البيعة بولاية العهد رسميًا، إلا أن عبدالملك عزم على مبايعة أخيه عبد العزيز بن مروان رسميًا وليًا لعهده. فقرر عمرو مواجهة عبد الملك، فانسل من معسكر عبد الملك الذي كان معسكرًا خارج دمشق لمواجهة ابن الزبير، وتوجه مع بعض أنصاره إلى دمشق، وباشر بالاستعداد لحصار يفرضه عليه عبد الملك بعد أن أيده أهل دمشق والجند الذين بها في تمرده، وأعلن ١٢ ألف مقاتل فيها ولاءهم له، منهم قوة ضاربة عددها ٤ آلاف من أبطال الشام، وحظي عمرو بدعم ومؤازرة بعض

وجوه أهل الشام خارج دمشق، لما بلغ عبدالملك أخبار تمرد عمرو بن سعيد، أسرع بالعودة إلى دمشق، وفرض حال وصوله حصارًا حول دمشق لقمع تمرده والقضاء عليه. لكن عبد الملك عمد إلى التهدئة والرضوخ إلى مطلب عمرو بعد أن لقي في مواجهته قوة وممانعة، لكن عمرو بقي على تمرده، وبعد جولات من المفاوضات بين الطرفين تم الاتفاق على: أن يكون عبد الملك أمير المؤمنين، وأن يصبح عمرو بن سعيد ولي العهد والخليفة من بعده، وأن يكون أميرًا على دمشق، وألا يخرج عامل لعبدالملك إلا ومعه عامل لعمرو بن سعيد، ولا يكتب كتاب إلا كتبه عبدالملك والأمير عمرو بن سعيد، وأن دخل عمرو وليس عبدالملك في مجلسه يجلس عمرو في مجلسه، وإذا جاء عبدالملك يتنحى له عمرو عن صدر المجلس، وعلى أن لعمرو إذا ركب أن يركب في أربعة آلاف، وأن لا يدخل عمرو على عبدالملك حتى يكون مع عمرو رهينة من ولد عبدالملك، وأن يتولى عمرو بيت المال وديوان الجند.

كان عبدالملك يعي خطورة الاتفاق، فأضمار النية على عدم الالتزام به، والتعامل معه كهدنة مؤقتة، تتيح له إنهاء تمرد عمرو، والدخول بقواته إلى مدينة دمشق لاستعادة المبادرة، والشروع في تصفية عمرو وأنصاره قبل وضع الاتفاق موضع التنفيذ، لذا بادر عبدالملك بعد أربعة أيام فقط من دخوله العاصمة دمشق إلى تنفيذ مخططه، فاستدرج عمرو بن سعيد إلى قصره، وعزله عن أنصاره، ثم تولى قتله بعد أن الأمان، وهو القائل: «أنا قاتل عمرو... حق والله لمن قتل عمرًا أن يفخر بقتله». قال ابن الكلبي: «كان مروان بن الحكم ولي العهد عمرو بن سعيد بن العاص بعد ابنه، فقتله عبد الملك، وكان قتله أول غدر في الإسلام».

زفر بن الحارث الكلابي

ظل القيسيون في بداية عهد عبد الملك بن مروان على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم زفر بن الحارث الكلابي، الذي فر إلى قرقيسياء وتحصن بها،

وأصبح تحصنه هناك مركزًا لشن الغارات في المناطق المجاورة له. كان عبد الملك بن مروان في هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير، وكان على عبد الملك إذا أراد استعادة العراق أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيساء، فسار إليه في جيشه الذي كان قد جهزه لحرب مصعب بن الزبير، فبدأ بزفر أولًا فحاصره، ولكن رجال زفر أظهروا بطولة وجسارة في الدفاع عن المدينة، وفيهم قال عبد الملك: «لا يبعد الله رجال مضر والله قتلهم لذل وإن تركهم لحسرة».

لجأ عبد الملك إلى المسالمة والمهادنة، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويحذره من الخروج عليه، وبعد جهود من المفاوضات أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، واشترط عليه أن يظل مخلصًا لابن الزبير، وافق عبد الملك على شرط زفر، وأعطاه الأمان هو وابنه وقائده الهذيل بن زفر، واختتم عبد الملك مصالحة زفر بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث. حرص عبد الملك على على تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية، وجعل من أصحابه زفر بن الحارث وابنه الهذيل وعبد الله بن مسعود الفزاري وغيرهم من زعماء قيس، كما كان من أصحابه حسان بن مالك الكلبي وروح بن زنباع الجذمي ورجاء بن حيوة الكندي وغيرهم من الزعماء اليمنيين، وعدل بين الفريقين في مجلسه وعدل بينهما في وظائفه، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبًا، بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية.

الفتوحات

الجبهة الشرقية

فتوحات خراسان وما وراء النهر في عهد عبد الملك بن مروان.

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت شرقي الدولة الإسلامية للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم، وكانت السياسة الخارجية التوسعية على هذه الجبهة هي آخر اهتمامات عبد الملك بن مروان لانصرافه لمعالجة القضايا الداخلية، وكان الجمود هو

الطابع العام لسياسة الفتوحات في ذلك الوقت. لكن قوة الدولة سمحت لها بتحقيق بعض الفتوحات وإن لم تكن كبيرة في هذه المرحلة، ولم تنشط فتوحات ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ولاية خرسان مع العراق عام ٧٨ هـ، فولَّى خرسان المهلب بن أبي صفرة الذي غزا مع أبنائه بلاد ما وراء النهر خاصة مدينة كش والختل وريخش، وتابع أبناؤه بعد وفاته سياسة الجهاد والفتوحات، حيث أرسل المهلب جيوش المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد التركمان ابتداء من عام ٨٠ هـ، فعبر المهلب بجيشه نهر سيحون ونزل مدينة كش، ثم جعل يغزو البلاد غزوا متواصلًا، وركز معاركه على مدن سمرقندوبخارى وبطخارستان وببست. كانت الجيوش مقسمه على عدة قادة فأحد الجيوش كان في مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف، والمهلب على آخر في خمسة آلاف مقاتل، وابنه يزيد بن المهلب على رأس جيش مهمته فتح بلاد الختل، الذي استطاع من تحقيق أهداف حملته واضطر ملك الختل إلى مصالحة يزيد ودفع الجزية له. بعد وفاة المهلب ولَّى الحجاج ابن المهلب يزيد على خرسان، فقام يزيد عام ٨٤ هـ بفتح قلعة باذغيس بعد أن أحكم حصارها، واستولى على مافيها من أموال وذخائر، ثم عزل الحجاج يزيد بن المهلب وعين أخاه المفضل بن المهلب على ولاية خرسان عام ٨٥ هـ، فولي المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذغيس وفتحها، ثم غزا مدينة أخرون وشومان. إلا أن فتوحات المسلمين لم تأخذ مظهرها الجدي والنوعي إلا عندما ولَّى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خرسان عام ٨٦ هـ، وهي نفس السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان.

الجبهة البيزنطية

صورة للإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني مسكوك على عملة ضربت خلال فترة حكمه الثانية. وهو من وقع مع عبد الملك معاهدة دفع بموجبها المسلمين ثلاثمئة وخمسين وستين ألف قطعة ذهبية سنويًا للدولة البيزنطية

فقد المسلمون روح المبادرة والقوة أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بالدولة الإسلامية، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأن أبرمها البيزنطيون مع المسلمين، وساق جيوشه لقتالهم فاجتاح بعض بلاد الشام عام ٧٠ هـ الموافق ٦٨٩م. في هذه الفترة وقع على الطرف الشرقي للإمبراطورية البيزنطية حادث أثر على سير العلاقات بين المسلمين والروم، كانت هناك جماعات من المردة النصارى فيجبال الأمانوس قد ألفوا جيشًا واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجًا حدوديًا بينها وبين المسلمين في هذه المنطقة، كان المردة بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي يحمون الدولة البيزنطية من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعة ضد أي اعتداء خارجي، وكثيرًا ما توغلوا جنوبًا حتى وصلوا إلى جبال لبنان، وقد ضايقوا المسلمين بما كانوا يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة خاصة المناطق الساحلية، اضطر عبد الملك بن مروان وفقًا للظروف الحالية إلى المهادنة تفاديًا لحروب جديدة في المنطقة، وللتفرغ للمشاكل الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة عام ٧٩ هـ الموافق ٦٨٩م تعهد الخليفة بمقتضاها بالتالي: أن يدفع مالًا مقدرًا للإمبراطور البيزنطي يبلغ ثلاثمئة وخمسين وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمئة وخمسة وستون عبدًا، وثلاثمئة وخمسة وستين جوادًا أصيلًا في مقابل وقف الغارات البيزنطية على الأراضي الإسلامية، وأن تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبيريا، وأن تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقتي جبال لبنان وشمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس في آسيا الصغرى، وأن تستمر هذه المعاهدة مدة عشر أعوام.

كان من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان وشمالي الشام أن قُضي على السور القوي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسَمح للمسلمين تجديد

غاراتهم على المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثًا. فعادة غارات المسلمين للمشهد العسكري، ونجم عنها فتح قيسارية عام ٧١ هـ، وبعدها بسنتين كشف عبد الملك بن مرواح عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد أن فرغ من مشاكله الداخليه، عندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلًا من العملة البيزنطية، وقد حمل هذا التصرف تحدي للإمبراطور ومقدمة إلى قرب استئناف المسلمين نشاطهم العسكري على الجبهة البيزنطية. في أواخر عام ٧٣ هـ شعر عبد الملك بن مروان أن الدولة استعادت قوتها، فعين أخاه محمد بن مروان واليًا على الجزيرة وأرمينيا ليكون القائد في هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة. في عام ٧٣ هـ هاجم المسلمون آسيا الصغرى في أرمينيا، حيث التقى الجيشان بقيادة الإمبراطور البيزنطي من جهة، ومن جهة أخرى محمد بن مروان، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين وهزم فيها الروم. في حين رد البيزنطيون على هزيمتهم في أرمينيا بغزو مرعش عام ٧٦ هـ، وكان هذا العام هو العام الذي عُزل فيه الإمبراطور جستنيان الثاني، وخلفه من بعده الإمبراطور ليونتيوس، حيث استمرت الغارات الإسلامية في عهده. ثم مالبث أن تراجع الاندفاع الإسلامي باتجاه الثغور البيزنطية ابتداء من عام ٨١ هـ بفعل عاملين: الأول اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام عام ٧٨ هـ، والثاني: قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ والتي استمرت أربعة أعوام. استغل الإمبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث هذه الأوضاع وكثف نشاطه العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقية عام ٨٤ هـ، إلا أن عبد الملك بن مروان بعد فراغه من ثورة ابن الأشعث هاجم إقليم قيليقية واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت المعركة بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليه، وبذلك عادت سيطرت المسلمين مجددًا على منطقة أرمينيا، كما فتح المسلمون المصيصة،

وبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمئة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون قد سكنوها من قبل، فبنى مساجدها وعمر دورها.

جبهة إفريقية

كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدِّي لسياسة الفتوحات في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي لإفريقية، وإخضاع البربر لسلطة الدولة. بعد أن هدأت أوضاع الاضطرابات التي عصفت بالدولة الأموية، وجد عبد الملك بن مروان أمامه متسعًا من الوقت ليقوم بعمل كبير في إفريقية، خاصة أنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي البربري وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربيه للدولة، فعهد إليزهير بن قيس البلوي بقيادة العمليات العسكرية، وأمره بالقضاء على قائد البربر كسيلة، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون عقب مقتل عقبة بن نافع، وبتعيين زهير قائدًا للجبهة الإفريقية بدأت المرحلة الخامس من مراحل فتوح شمالي إفريقية في الحقبة الإسلامية.

كان زهير بن قيس قد انسحب بالمسلمين من القيروان بعد مقتل عقبة، وظل منتظرا في برقة إلى أن تأتيه الإمدادات لكي ينهض إلى إفريقية من جديد، ونظرًا لأنه صاحب عقبة، فقد وقع الاختيار عليه ليقود الحملة العسكرية الجديدة، وأمده الخليفة عبد الملك بالخيل والرجال والعتاد والمال. سار زهير بن قيس بجيشه إلى القيران سنة ٦٩ هـ الموافق ٦٨٨، وكان كسيلة قد تركها هو ومن معها من البربر والروم، واحتمى بجبل على مقربة منها، فلما وصل زهير لم يدخل المدينة وإنما أقام بظاهرها ثلاثة أيام، إلى أن استراح الجيش استعدادا للمعركة الكبرى، وفي اليوم الرابع التقى الجمعان بالقرب من القيروان على مسيرة يوم منها في معركة كبيرة، حقق المسلمون فيها نصرًا كبيرًا، فانهزم البربر والروم، وقُتل كسيلة وكثير من كبار أصحابه، وطارد المسلمون فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة. رجع زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين

بها، وبعد أن تم له من ذلك ما أراد واطمأن إلى أنه لم يعد هناك خطورة لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة، أعلن أنه عائد إلى المشرق ومن أراد من أصحابه. كان الروم بالقسطنطينية قد بلغهم مسير زهير ومعه الجيش كله من برقة إلى القيروان لقتال كسيلة، فاغتنموا الفرصة وخرجوا من جزيرة صقلية في مراكب كثيرة وقوة عظيمة، فأغاروا على برقة، وأصابوا فيها سبيًا كثيرًا وقتلوا ونهبوا، وأقاموا بها مدة أربعين يومًا، وافق ذلك رجوع زهير إلى المشرق فأُخبر بخبرهم، فأمر العساكر بالإسراع والجد في قتالهم، وعجل هو بالمسير ومعه سبعون من أصحابه أكثرهم من التابعين وأشراف العرب المجاهدين، وعندما علم الروم بقدومه أخذوا في الاستعداد للرحيل عن برقة، وفي الوقت الذي وصل زهير فيه إلى ساحل مدينة درنة التي اتخذها الروم مركز لهم، باشر القتال، وتكاثر الروم عليهم، فقلتوا زهير وأصحابه ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.

في عام ٧٤ هـ الموافق ٦٩٣م وجد عبد الملك نفسه قويًا إلى الحد الذي مكنه من استئناف الفتوحات في شمال إفريقية، خاصة بعد أن تجازوت الخلافة محنتها في الداخل والمتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختيار حسان بن النعمان الغساني قائدًا جديدًا للجيش الإسلامي في إفريقية، وبذلك بدأت المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي إفريقية. خرج حسان بن النعمان من مصرأوائل سنة ٧٤ هـ على رأس جيشه، ووصل به إلى طرابلس، فانضم إليه من كان هناك من المسلمين، ثم سار إلى إفريقية ودخل القيروان حيث أعد نفسه للغزو. اتبع حسان خطة عسكرية جديدة أساسها مقابلة أعدائه من الروم والبربر كلٌ على حده، حتى يسهل القضاء عليهم، وبدأ بالروم فاتجه بكل قواته إلى قرطاجنة، وهي عاصمة إفريقية القديمة ومصدر المقاومة الثابت، ولم يكن أحد من القادة السابقين قد تمكن من فتحها، فضرب عليها الحصار، وكان بها عدد كبير من الروم، خرجوا للتقال مع ملكهم، فانتصر حسان، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وفر الباقون في المراكب إلى جزائر البحر وخاصة نحو صقلية.

بعد هزيمة القرطاجنيين تصدى حسان بن النعمان لتحالف بيزنطي بربري جديد، فقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة، فاجتمعوا في موضع يسمى صطفورة، وأمدهم البربر بعسكر عظيم، فزحف إليهم حسان، وقاتلهم حتى هزمهم، وتمخضت المعركة عن عدد كبير من قتلى التحالف البيزنطي البربري، وتراجع البربر إلى مدينةبونة، ثم انصرف حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه. كان حسان يفكر في أن يتصدى للتجمع البربري الضخم والشرس في منطقة جبال الأوراس في الداخل، بقيادة الكاهنة ديهيا التي تمكنت من تجميع قوي البربر ورئاستها لهم بعد مقتل كسيلة، وكان حسان قد أدرك أن هذا التجمع له خطورة قصوى، ولا بد من التصدي له، لذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها عند وادي مسكيانه، وانتهى القتال المرير بهزيمة حسان هزيمة كبيرة أدت إلى ضياع كل إفريقية وارتداد المسلمين إلى حدود مدينة قابس، لكن البربر تبعوا حسان وجيشه ولاحقوه حتى خرج من حد قابس، وعلى إثر هذه الهزيمة استرد الروم عاصمتهم قرطاجنة.

كتب حسان إلى الخليفة بخبره بأمر الهزيمة وما ترتب عليها، فعاد الجواب يأمره أن يقيم حيث وافاه، وتأخر وصول المدد من الخليفة لمدة تصل إلى خمس سنوات، وعندما أتم حسان حالة الاستعداد، ووصلته الأمداد من العرب وممن انضم إليه من مسلمي البربر حيث سار إلى الكاهنة، والتقى بها مع جيشها، وتمكن من هزيمتها وقتلها، واقتحم جبال الأوراس عنوة، وكان من ثمرات النصر أن سارع كثير من البربر يطلبون الأمان ويعلنون الإسلام والطاعة، لكن حسان لم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفًا يكونوا مع العرب مجاهدين، فأجابوه وأسلموا على يديه. في تلك الفترة حاول البيزنطيون استعادة قرطاجة بواسطة أسطول بحري واقتحموها عام ٨٢ هـ إلا أن حسان أخرجهم منها، وحتى يقضي على آمالهم في العودة إليها دمرها تدميرًا كاملًا، وبني إلى الشرق منها مدينة إسلامية جديدة بدلًا منها هي تونس.

ولاية العهد

بعد أن استقرت الأوضاع السياسية لعبد الملك بن مروان، وتم الإجماع على بيعته في الدولة الإسلامية، سعى عبد الملك إلى خلع أخيه عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد لتعيين ابنهالوليد بن عبد الملك مكانه. تحدثت المصادر التاريخية عن عزم عبد الملك على نقض بيعة أبيه مروان بن الحكم لأخيه عبد العزيز، وأن عبد الملك كان يلقى الدعم والتأييد لهذه الخطوة من الشخصيات المقربة لديه أمثال روح بن زنباع والحجاج بن يوسف الثقفي اللذان شجعاه لاتخاذ هذا القرار.[٥٦] يقول ابن الأثير الجزري: «كان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبد الملك فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذوئيب وقال: لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت فدخل عليه روح بن زنباع وكان أجل الناس عند عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أول من يجيبك إلى ذلك. قال: نصبح إن شاء الله، ونام روح عند عبد الملك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وهما نائمان وكان عبد الملك قد تقدم إلى حجابه أن لا يحجبوا قبيصة عنه وكان إليه الخاتم والسكة تأتيه الأخبار قبل عبد الملك والكتب، فلما دخل سليم عليه قال: آجرك الله ما كنا نريد وكان ذلك مخالفًا لك يا قبيصة، فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين إن الرأي كله في الأناة فقال عبد الملك: وربما كان في العجلة خير كثير رأيت أمر عمرو بن سعيد ألم تكن العجلة فيه خيرًا من الأناة». وقال أيضًا: «وقيل إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وأوفد في ذلك وفدًا فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز: إن رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك، فأبى فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضًا من بعده، فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل خراج مصر فأجابه عبد العزيز: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنًا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلًا وإنا لا ندري أينا

يأتيه الموت أولًا فإن رأيت أن لا تفسد علي بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسلميان: إن يرد الله أن يعطيكما الخلافة لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك، فقال عبد الملك حيث رده عبد العزيز: اللهم إنه قطعني فاقطعه».

ساهمت وفاة عبد العزيز بن مروان في فتح الطريق أمام عبد الملك لتحقيق أهدافه وسهلت عليه مهمته، فلجأ فور وفاة عبد العزيز إلى أخذ البيعة لولديه الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك بولاية العهد من بعده، وبذلك يكون عبد الملك قد حصر الحكم في نسله. قال ابن الأثير الجزري: «فلما مات عبد العزيز قال أهل الشام: رد على أمير المؤمنين أمره، فلما أتى خبر موته إلى عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسلميان فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حي فضربه هشام ضربًا مبرحًا وطاف به وهو في تبان شعر حتى بلغ رأس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها ثم ردوه وحبسوه».

الوفاة

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جمع ولده وفيهم مسلمة بن عبد الملك وكان سيدهم، فقال: «أوصيكم بتقوى الله تعالى فإنها عصمة باقية وجنة واقية، وهي أحصن كهف وأزين حلية، وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والفرقة والخلاف فبهما هلك الأولون، وذل ذوو العزة المعظمون، انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومجنكم الذي به تستجنون، وأكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر وأثبت لكم الملك، وكونوا بني أم بررة وإلا دبت بينكم العقارب، كونوا في الحرب أحرارا وللمعروف منارا، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة، وضعوا الذخائر عند ذوي الأحساب والألباب، فإنه أصون لأحسابهم وأشكر لما يسدى إليهم، ثم أقبل

على ابنه الوليد فقال: لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك وتحن حنين الأمة، ولكن شمر وائتزر والبس جلدة نمر ودلني في حفرتي وخلني وشأني وعليك وشأنك، ثم ادع الناس إلى البيعة فمن قال هكذا فقل بالسيف هكذا، ثم أرسل إلى عبد الله بن يزيد بن معاوية وخالد بن أسيد. فقال: هل تدريان لم بعثت إليكما، قالا: نعم لترينا أثر عافية الله تعالى إياك. قال: لا، ولكن قد حضر من الأمر ما تريان، فهل في أنفسكما من بيعة الوليد شيء، فقالا: لا، والله ما نرى أحدا أحق بها منه بعدك يا أمير المؤمنين، قال: أولى لكما، أما والله ولو غير ذلك قلتما لضربت الذي فيه أعينكما».[1] توفي عبد الملك يوم الخميس في منتصف شهر شوال ٨٦ هـ الموافق ٩ أكتوبر ٧٠٥م بدمشق، عن عمر بلغ الستين عامًا، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وشهرًا ونصف من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦. وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتماع الكلمة حوله ١٣ سنة و٥ أشهر.

أسرته

تزوج عبد الملك كلا من:

١. ولادة بنت العباس بن جزء العبسي. فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر.
٢. عاتكة بنت يزيد. فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم.
٣. أم هشام بنت هشام بن إسماعيل. فولدت له هشام
٤. عائشة بنت موسى بن طلحة. فولدت له أبوبكر واسمه بكار.
٥. أم أيوب بنت عمرو بن عثمان. فولدت له الحكم.
٦. ام المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي. فولدت له فاطمة.
٧. شقراء بنت سلمة بن حليس الطائي.
٨. ابنة لعلى بن أبى طالب.
٩. أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر.

١٠. ولـه أولاد مـن أمهـات أولاد وهـم: عبـد الله ومسـلمة والمنـذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج.

إدارة الدولة

النظام الإداري

اهتم عبد الملك بن مروان اهتمامًا خاصًا بشؤون الإدارة في الدولة، وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات. قام عبد الملك بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه وتعريب الإدارة والنقد المالي، وهي ما عرفت في عهده بحركة التعريب، وركز على تطوير ثلاثة أركان رئيسية في إدارة الدولة: دواوين الدولة والولاة والبريد. من الدواوين التي حظيت باهتمام عبد الملك ديوان الرسائل، وازدهر بشكل كبير أثناء ولاية الحجاج للعرق، نظرًا للمستجدات الساسية والعسكرية ووجود الكثير من الثورات والخارجين عن الدولة، فكان الخليفة يكتب للحجاج، مما كان له دور كبير في ازدهار ديوان الرسائل والكتابة، وكان الخليفة غالبًا ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية، وكان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية، وقد وضحت هذه الرسائل جانب من سياسة الخليفة الإدارية، فوقع يومًا كتابًا للحجاج كتب فيه: جنبني دماء ابن عبد المطلب فليس فيها شفاء الطلب، ولأهمية الديوان استعان عبد الملك والحجاج بكتاب حاذقون يجمعون بين الخبرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم عبد الملك: قبيصة بن ذؤيب، وروح بن زنباع الجذامي. أما ديوان العطاء فقد ارتبط بشكل كبير بالنواحي العسكرية والسياسية، ففي عام ٦٩ هـ خرج عبد الملك لقتال مصعب في العراق فتخلف بعض أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة ٧٠ هـ، كما كان عبد الملك يضطر تحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس جدد في الديوان، كما فعل عندما كثرة هجمات المردة النصارى، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من

العبيد فهو حر ويثبت في الديوان، كما استخدم عبد الملك سلاح زيادة العطاء ضد ابن الزبير حينما نادى الحجاج في جنده: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك. أما ديوان الجند فتطوره ارتبط لما بدا الجند تقاعسهم عن الخروج لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق وأمره بأن يعيد تنظيم الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله من ديوان الجند في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، وكان من أشهر من تولى ديوان الجند والخراج سرجون بن منصور، ثم بعد عزله عين عبد الملك سليمان بن سعد الخشني. أصبح ديوان الخاتم في عهد عبد الملك إدارة مستقله، كما أنشأ دار للمحفوظات الحكومية في دمشق. أما ديوان الطراز فأصله التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، تم اتسع مدلول الطراز وأصبح يطلق على المصنع أو المكان الذي تصنع فيه المنسوجات، في العصر الأموي ارتفع المستوى المعيشي لناس، فزادت عنايتهم بالترف، فأنشأ الأمويون عدد من المصانع عرفت بدور الطراز، وأصبحت هذه الدور أساسًا لما حدث من نهضة في صناعة النسيج. اعتنى عبد الملك بشكل كبير بالبريد، فأصبح وسيله مهمه لنقل الأخبار والرسائل في العمليات العسكرية وإلى الأقاليم وللولاه، قام عبد الملك ببناء الأميال في الطرقات كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، وأنشأ طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد، واستخدم عبد الملك البريد في حمل الأشخاص، فأصبح عبد الملك أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، فالبريد في عهده أصبح عصب الدولة، لذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده.

تعريب الدواوين

كان لعبد الملك بن مروان دور كبير في تعريب الدواوين، وكان جُل هدفه هو صبغ الإدارة المالية للدولة الإسلامية بالصبغة العربية الإسلامية، مع تمكين المسلمين من

الإشراف على الإدارة المالية إشرافًا تامًا. كان سير عمل الدواوين في بداية عهد عبد الملك هو أن الإشراف على الدواوين يقع بين أيدي أصحاب البلاد الأصليين الذين يكتبون بلغتهم، وقد اضطر المسلمون إلى إبقاء كتاب الدواوين في وظائفهم بعد أن فُتحت البلاد الجديدة لانشغال الفاتحين بما هو أهم من التنظيم. رصد عبد الملك أموالًا جزيلة وجوائز عظيمة لمن قاموا بترجمة الدواوين ونقل مصطلحاتهم إلى العربية في إطار صبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية. كان من أهم عوامل تعريب الدواوين هو اتجاه عبد الملك لتعريب الاقتصاد، حيث ضُربت العملة الإسلامية الخالصة لتحل محل العملات الأجنبية من: الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي، كما كان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية على الدولة الإسلامية: فمن الناحية السياسية صبغت الدولة الإسلامية بالصبغة العربية، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الكتابة الرسمية للدواوين، وهذا ما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى المسلمين العرب، كما أصبح بإمكان الخليفة الاطلاع على الدواوين والإشراف عليها. أما من الناحية الأدبية فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين، فنُقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وبدأت تظهر طبقة من الكتّاب المسلمين منذ ذلك الوقت،[٦٣] إذ كان للكاتب صالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح ما أعظم متنه على الكتّاب، كما أدى تعريب الدواوين لظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من أهتم بالترجمة مثل: خالد بن يزيد بن معاوية فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية.

الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر، وأطلق اسم ديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان، وكان عمر بن الخطاب أول من دون للناس في الإسلام، وكان عبد الملك أول من نقل الدواوين من الفارسية للعربية. تم تعريب الدواوين من اللغتين الرومية والفارسية، حولها من الرومية الكاتب سليمان بن سعد مولة خشين، وحولها من الفارسية الكاتب صالح بن عبد الرحمن مولى امرأة تسمى عتبة من بني مرة. الدواوين التي أمر عبد الملك بتعريبها هي ديوان الجند والخراج والرسائل والخاتم والبريد. تم تعريب ديوان الخراج في العراق عام ٨٣ هـ حيث عهد والي العراق الحجاج بن يوسف إلى صالح بن عبد الرحمن بنقله إلى اللغة العربية، ثم توالت عمليات تعريب الدواوين بعد وفاة عبد الملك، فديوان مصر نقل للعربية سنة ٨٧ هـ في عهد الوالي عبد الله بن عبد الملك بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقام بعملية التعريب ابن يربوع الفزازي، أما ديوان المشرق فتم تعريبه سنة ١٢٤ هـ بعد أمر يوسف بن عمر الثقفي لواليه في خرسان نصر بن سيار الكناني، قام بعملية التعريب السحق بن طليق من بني نهشل.

النظام الاقتصادي

كان من أهم مصادر دخل الدولة الأموية: الزكاة والخراج والجزية وخمس الغنائم والصوائف. وقد تفاوتت مساهمة القطاعات الاقتصادية في الدولة الأموية، ولكن كان اقتصاد الدولة يعتمد بصفة أساسية على قطاع الزراعة، الذي اكتسب أهميته من إيراد الأراضي الخراجية، والتي من أهمها أرض السواد بالعراق، لما عرف عنها من خصوبة أرضها، وغزارة إنتاجها، حتى كان خراجها يشكل حوالي ٢٦ ٪ من اجمالي خراج الدولة الأموية تعرضت بعض هذه المصادر لانحراف في طرق تحصيلها الشرعي من قبل القائمين عليها، ومنها: أن الرسول صالح أهل نجران على ٨٠ ألف درهم، فلما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم فخفضها إلى ٧٢ ألف، فلما تولى معاوية

بن أبي سفيان شكوا إليه نفس الشكوى، فخفضها إلى ٦٤ ألف، فلما تولى الحجاج العراق رفعها إلى ٧٢ ألف درهم لاتهامه لهم بمعاونة خصوم الدولة، ومنها أيضًا ما قام بهالمهلب بن أبي صفرة عندما صالح أهل خوارزم على مايزيد على عشرين ألف ألف درهم (عشرين مليون درهم)، فكان يأخذ بدل النقد سلعًا عينية لعدم توفر السيولة النقدية لدى أهلها، وكان يأخذ الشيء بنصف قيمته فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهم، ولكن لم يكن لهذه الانحرافات تأثير كبير في قوة الاقتصاد للدولة. أما الخراج فقد تدنى كثيرًا في عهد ولاية الحجاج على العراق، تتحدث الروايات التاريخية أن الخراج وصل في عهده بين ١٨ و٢٥ مليون درهم، بعد أن كانت تصل في عهد معاوية بن أبي سفيان إلى ١٣٥ مليون درهم. قام عبد الملك بن مروان بمسح أرض الشام والجزيرة لتحديد قيمة خراجها، وكان معياره في التقدير مدى البعد والقرب من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هي غاية البعد، وما نقص عن اليوم فهو في القريب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأراضي القريبة يزيد عن الأراضي البعيدة بمقدار الضعف. أما نفقات الدولة فقد كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب في عهد عبد الملك هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، والحد الأدنى ٧٢٠ درهم سنويًا، وكان مقدار متوسط الدخل المناسب للفرد في عصر عبد الملك بن مروان وبقية الخلفاء الأمويين من بعده ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ درهم شهريًا. في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغت في العراق: حدها الأدني ١٢٠٠ درهمًا، وحدها الأوسط ١٦٠٠ درهمًا، وحدها الأعلى ١٨٠٠ درهمًا.

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمراحل ضعف بسبب كثرة الفتن والقلاقل والثورات، لكن مع بداية عام ٧٧ هـ بدأت التجارة الداخلية بالازدهار والنمو، وذلك بسبب زيادة السيولة النقدية الداخليه وذلك بإصدار العملة الأسلامية الجديدة، ولحدوث هدوء واستقرار داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية، كما

تمت عدة اصلاحات في هذه المرحلة تمثلت في توحيد الكيل والميزان من قبل الحجاج بإقليم العراق، ووجود خدمات لراحة التجار كالفنادق والحمامات داخل الأسواق. أما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك بن مروان فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية، ومرت التجارة بين البلدين بمرحلتين من الازدهار والتدهور، فمرحلة النمو والازدهار نشأت من كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية للدولة الأموية، مما خفض حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق، وبالتالي زادت أحجام المبادلات مع البيزنطيين، واعتماد الدولتين على بعضهما البعض، فكان البيزنطيون يعتمدون كليًا على أوراق البردى، في حين كان الأمويون يعتمدون كليًا على النقد الذهبي البيزنطي. أما مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدين فكانت بسبب تزايد اعتماد الدولة في تجارتها مع دول الشرق الأقصى عن طريق الخليج العربي بعد تطور صناعة السفن. قامت الدولة الأموية بتطوير نوعين من الخطوط التجارية لتعزيز تجارتها مع الشرق، الأول عن طريق البر: فبعد تحول بلاد الهند والسند لمظلة الدولة، تحولت التجارة فيهما من تجارة خارجية إلى داخلية، الثاني عن طريق البحر: وذلك بعد تطور إنشاء السفن. من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك صناعة المنسوجات، فقد تطورت في عهده وأصبحت لها مصانع خاصة وسميت دور الطراز، بالإضافة لتطور صناعة قطع الرخام وزخرفته. كما تطورت صناعة البردى في مصر، لأن البردى كانت تستخدم قبل ظهور صناعة الورق، وكانت الدولة تشرف إشرافًا مباشرًا على الإنتاج.

توسعت الصناعات الحربية في عهد عبد الملك بافتتاح دار صناعة السفن في تونس، وكانت نواة الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن، تم نقلهم من دار الصناعة بمصر، وقد تم وضع تنظيم لازم وطريقة إمداد الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المنطقة للقيام بهذه

المهمة، ثم قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة فشق قناة بين الميناء والمدينة، وشكلت ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة.

تعريب النقود

ظلت النقود المستعملة في عصر صدر الإسلام وبدايات الدولة الأموية النقود البيزنطية والساسانية، وتتمثل النقود البيزنطية بصفة عامة في الدينار وهو من الذهب، وفي الفلس وهو عملة من النحاس، وكان على الوجه في كل منها الإمبراطور البيزنطي، وأما النقود الساسانية فتتمثل في الدراخما أو الدرهم وهو من الفضة. عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة بشكل كبير ولم تعد معه النقود العربية المستنسخة من النقود الفارسية والساسانية قادرة على مواكبة التطور والاتساع والنمو المطرد، فبدأ التفكير في سك النقود العربية الخالصة التي تبرز الشخصية الإسلامية، وكان لقرار عبد الملك بتعريب العملة عدة أسباب، لكن السبب المباشر هو ما عُرف تاريخيًا باسم مشكلة القراطيس، أي ورق البردي، وهي أن مصانع البردي في مصر اعتادت أن تبعث بالورق إلى بيزنطية، وقد كتبت عليه بسملة التثليث (الآب والابن وروح القدس) باللغة اليونانية، واستمر هذا التقليد قائمًا بعد فتح مصر على يد المسلمين، فلما انتبه عبد الملك إلى هذا الأمر، طلب من عامله على مصر بأن يلغي هذا التقليد، وأن يكتب على البردي: قل هو اللهُ أحد، وعندما علم الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني بذلك، غضب وبعث إلى الخليفة أكثر من مرة يطلب منه سحب قراره، وعندما أدرك أن عبد الملك مصمم على موقفه، هدده بأن يصدر دنانير تحمل نقشًا مُهينًا للإسلام والمسلمين، فاستشار الخليفة أصحابه، واتخذ في ضوء ذلك قراره التاريخي بسك الدينار الذهبي الإسلامي، وتحريم تداول الدنانير البيزنطية تحريمًا كاملاً، فأصدر عام ٧٦ هـ دينارًا عربيًا متحررًا من الصور الساسانية والبيزنطية يحمل كتابات عربية بالخط الكوفي.[٧٣] كان وزن الدينار إسلامي ٤.٢٥ جرام، وقطره القائم ٢٠ ملم،

وقطره بالعرض ١٩ ملم وسماكته ١ ملم، ونسبة الذهب فيه كانت ٩٦٪، ويظهر فيه الخليفة عبدالملك بن مروان واضعًا يده على سيفه، وتم كتابة لا إله إلا الله وحده لا شريك له على الوجه، وكتابة سورة الإخلاص على الظهر، وتم سكه في دمشق، وقد أخذ الدينار الإسلامي بالانتشار التدريجي، وغدا العملة الذهبية الوحيدة في العالم الإسلامي، من حدود الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا، ووضعت الدولة الإسلامية النظم والقواعد لدعمه وحمايته.

كانت النقود التي سكها عبد الملك بن مروان حينئذ ثلاثة أنواع هي: الدينار وأجزاؤه كالنصف والثلث وكانت من الذهب، والدرهم من الفضة، والفلس من النحاس.[٧٦] كما وحد عبد الملك وزن الدراهم، فجعلها ستة دوانيق، لأن الدراهم السابقة التي كانت متداولة في الدولة الإسلامية منها الكبير يساوي ثمانية دوانيق، ومنها الصغير الذي يساوي أربعة دوانيق.[٧٧]

يقول ابن الجزري في أحداث سنة ٧٦ هـ: «وفي هذه السنة ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناس بذلك. وكان سبب ضربها أنه كتب في صدور الكتب إلى الروم: قل هو الله أحد، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: إنكم قد أحدثتم كذا وكذا، فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون. فعظم ذلك عليه. فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فيه، فقال: حرم دنانيرهم، واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى. فضرب الدنانير والدراهم... وكانت دراهم الأعجام مختلفة كبارًا وصغارًا، وكانوا يضربون مثقالا، وهو وزن عشرين قيراطا، ومنها وزن اثني عشر قيراطا، ومنها وزن عشرة قراريط، وهي أصناف المثاقيل، فلما ضرب الدراهم في الإسلام أخذوا عشرين قيراطا، واثني عشر قيراطا، وعشرة قراريط، فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطا،

فضربوا على الثلث من ذلك، وهو أربعة عشر قيراطا، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطا، فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل».

النظام القضائي

كان القضاء في عهد عبد الملك بن مروان استمرارًا لما كان عليه زمن من سبقوه من الخلفاء، حيث تخلى خلفاء بني أمية عن ممارسة القضاء، كما كان في العهدين النبوي والراشدي، وسعوا إلى الفصل بين السلطات، إلا في ثلاثة أشياء أبقاها الأمويون، هي: تعيين القضاة بطريقة مباشرة في عاصمة الخلافة دمشق، والإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم ومتابعة شئونهم الخاصة في التعيين والعزل، والإشراف على التزام القضاة بالسلوك القضائي، ثم ممارسة الخلفاء الأمويين لقضاء المظالم، وقضاء الحسبة.[٧٩] قام عبد الملك بإسهامات تنظيميه في النظام القضائي، فهو أول من أفرد للمظالم يومًا، وأوجب أن تقرأ عهود القضاء أي: أن تقرأ أوامر تعيينهم في المساجد الجامع أولًا، ثم يتوجهون إلى دار الأمير ليتلى أمامه عهد توليه القضاء. كان من أشهر قضاة عبد الملك أبو إدريس الخولاني، وكان له المظالم حتى أعفى نفسه، ثم ولى عامر الأشعري ثم عبد الله بن عامر اليحصبي ثم عبد الله بن قيس ثم سليمان المحاربي. مما ثبَّته عبد الملك في نظامه القضائي اقراره بقضاء من سبقه من القضاء والخلفاء وإن كان قد عاداهم، وقد روي أن أبان بن عثمان والي المدينة أرسل لعبد الملك قائلًا: «إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية فما يرى أمير المؤمنين أمضيها أم أردها»، فكتب عبد الملك: «إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ماتناول في الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندما يتعسر». قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها أربعمئة دينار حدًا أعلى، وكان يجلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين.

تميز القضاء في عصر بني أمية عامةً وعهد عبد الملك بن مروان خاصةً بميزتين، الأولى: أن القاضي كان يحكم بما يوجه إليه اجتهاده، إذ لم تكن هناك المذاهب الأربعة التي تقيَّد بها القضاء فيما بعد، فكان القاضي يرجع إلى الكتاب والسنة للفصل في الخصومات، الثانية: أن القضاء تميز بتدوين الأحكام التي يصدرها القاضي، وهي ميزة لم تكن معروفة في عهد الخلفاء الراشدين، ولعل السبب في ذلك هو عودة المتخاصمين لاستئناف الحكم بإعادة النظر في القضية أو إنكار أحد الخصمين للحكم الصادر. كما تميز النظام القضائي والإداري في عهد عبد الملك بوجود المحتسب على رأس جهة إدارية رقابية نظامية، وهي استمرارية لما كان عليه الوضع في عصر صدر الإسلام. كان المحتسب يتولى مهمة مراقبة الأسواق، وكانت من واجباته في السوق مراقبة الأوزان والمكاييل والمقاييس نظرًا لتعددها في الأقاليم الإسلامية اجتهد الخليفة عبد الملك في مسألة تطبيق الحدود، فيروى أنه أراد أن يقطع يد طهمان بن عمرو لأنه قطع يد لص، لكن تدخل أم طهمان لدى الخليفة لكي يعفو عنه دفعه للتراجع عن حكمه إكرمًا لأمه العجوز.

بجانب جهاز القضاء اهتم عبد الملك بجهاز الشرطة، وعين عبد الملك على شرطته عبد الله بن هاني الأودي، ثم استبدله بيزيد بم كبشة السكسكي، ثم عزل الكثير من هذا المنصب، وكان آخر من تولى الشرطه في عهده: كعب بن حامد العنسي. لم تكن مهمة الشرطة الجناة واللصوص، بل مارست عملًا آخر وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية.

الأقاليم

كانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، يرأس كل إقليم أمير يكون تعيينه وعزله من قبل الخليفة، ويملك الأمير صلاحيات واسعة في إدارة إقليمه، وهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، وهو المسؤول عن تنظيم الجند

وتجهيز الحملات العسكرية، وكان له صلاحية الإشراف على سك النقود. كان بجانب الأمير موظف له أهمية كبيرة وهو صاحب الخراج، فالوالي يدير الشؤون السياسية والإدارية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية. كان تقسيم الأقاليم في عهد عبد الملك بن مروان كالتالي:

- بلاد الشام: وهي عاصمة الدولة، وقد قسمت إلى خمسة أجناد وهي: جند دمشق ومركزها دمشق، وجند حمص ومركزها حمص ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين ومركزها قنسرين ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطين ومركزها اللد، وجندالأردن ومركزها طبرية ومن مدنها عكا. لم يكن عبد الملك يعين واليًا خاصًا على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، لكنه كان يعين ولاة على الأجناد، وكان جند دمشق تحت إدارة عبد الملك المباشرة.
- الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن: يشمل هذا الإقليم عدد من الأجناد والأقاليم ومنها: الحجاز: ففي عام ٧٣ هـ حدث تطور إداري مهم في هذا الإقليم، إذ جمع عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجاج بن يوسف. كان عبد الملك ينتهج سياسة حكيمة مع أهل الحجاز، ويلبي ويحسن لهم، وقد استجاب لطلبهم في عزل الحجاج عن الحجاز، وذلك عام ٧٥ هـ، حيث نقله إلى العراق وعين مكانه عمه يحيى بن الحكم على المدينة، ثم عين أبان بن عثمان بن عفان عام ٧٦ هـ، وفي عام ٨٢ هـ عزل الخليفة أبان عن ولاية المدينة، وقبل سنة ٨٣ هـ ولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي، فبقي في منصبه حتى توفي عبد الملك. مكة: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك واليًا عليها، وفي نفس السنة جمع عبد الملك للحجاج أعمال الحجاز ومكة واليمن حتى عام ٧٥ هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومي. أواسط الجزيرة العربية: وكانت أهم مناطقها اليمامة،

والتي كانت منذ عام ٦٥ هـ مقرًا لنجدة بن عامر الحنفي زعيم فرقة النجدات الخارجية، وبعد أن قضى عليه عبد الملك ولى على هذا الإقليم يزيد بن هبيرة المحاربي، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم بن عربي، الذي بقي حتى وفاة عبد الملك. اليمن: في عهد عبد الملك أصبح لليمن والي واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال، ومن أشهر ولاة الخليفة على اليمن محمد بن يوسف الثقفي، وظل في ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة ابن مروان.

- العراق والمشرق: كان مركز الإقليم العراق: حيث وجه عبد الملك كل اهتمامه نحوه، واستطاع أن يقضي على ابن الزبير فيها سنة ٧٢ هـ، وبايعه أهل الكوفه وولى عليهم أخوه بشر بن مروان، ثم فرق العمال على المدن فولى على البصرةخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الذي فشل في قتال الخوارج في البحرين والعراق، فعزله عبد الملك وجمع العراق لبشر بن مروان، ثم مات سنة ٧٤ هـ فأسند عبد الملك العراق إلى الحجاج. الولايات التابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية: فقد كانت الأجزاء الشرقية المطلة على بحر الخليج تابعة إداريًا إلى أمير العراق، ومن أهم أقاليمها البحرين الممتد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان. خرسان والمشرق: بعد أن استرجع عبد الملك العراق بدأ بالتخطيط لاسترجاع خرسان، وفي عام ٧٨ هـ ضم عبد الملك ولاية خرسان وسجستان وكل المشرق الإسلامي إلى ولاية العراق للحجاج بن يوسف، فولى الحجاج على خرسان المهلب بن أبي صفرة عام ٧٩ هـ، وعين على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة.
- الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان: تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات، وتشمل ذاك الحين ديار ربيعة ومضر وديار بكر، بينما تقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقي للجزيرة الفراتية، وكانت الموصل في عهد عبد الملك جزءًا من ولاية الجزيرة الفراتية، أدرك عبد

الملك أهمية الجزيرة، فخطط لجعلها ثغرًا منيعًا لمواجهة الخزر والبيزنطيين، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضي، وأمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك، كما نقل بعض من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل، وفصلها عن قنسرين وجعلها بجانب أرمينيا وأذربيجان إقليمًا إداريًا مستقبلًا، وعين على إدارتها محمد بن مروان عام ٧٣ هـ، وأوكل إليه مهمة مقاتلة البيزنطيين والخزر. كانت ولايات الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان والموصل غالبًا ما تجمع تحت إمرة أمير واحد.

- مصر: كان والي عبد الملك على مصر أخاه عبد العزيز بن مروان، ولم تقتصر مسؤولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط، بل امتدت إلى أفريقيا أيضًا، وأصبح المسؤول عن إدارة أفريقيا، فكان يعين عليها الولاة ويعزلهم في بعض الأحيان، كما فعل عام ٧٨ هـ عندما عزل حسان بن النعمان وولى مكانه موسى بن نصير.
- أفريقيا: كانت أوضاع إفريقيا الإدارية والسياسية قبل تولي عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية في الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان فسيطر كسيلة على شمال إفريقيا. استطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على الشمال الأفريقي بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية. من أشهر ولاة إفريقيا في عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير.

الحركة الأدبية والعلمية

كان عبد الملك بن مروان عاقلا لبيبًا، وعالمًا أديبًا، وكان خطيبًا معدودًا في بني أمية، وكان من عادة عبد الملك أن يحمل خيزرانة في يده وكان يقول: «لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب نصف كلامي». كان عبد الملك بن مروان من أكثر الناس علمًا وأبرعهم

أدبًا، يطارح جلساءه حديث الشعر ويجول معهم في نقد الأبيات والمقطعات الشعرية. قام عبد الملك برد الشاعر الاخطل إلى البلاط الأموي وجعله شاعر بني أمية، فأدى عمله هذا إلى اتساع فن النقائض أو الهجاء القبلي بين الشعراء عامة، والأخطل والفرزدق وجرير خاصة. فن النقائض فن قديم وُجد منذ العصر الجاهلي وترعرع حتى وصل إلى عهد بني أمية، وقد توافرت في هذا العهد الأسباب السياسية الاجتماعية والعقلية لرعاية هذا الفن، وجذبت إليه الشعراء. وكان عهد عبد الملك بن مروان يمثل الحاضنة الشرعية لهذا الفن، ومما يذكر أن أحد أهداف تعيين عبد الملك لأخوه بشر ليكون والي العراق، إذكاء نار العداوة والخصومة بين الشعراء. من أمثلة خطابة عبد الملك أنه قام مرةً في مكة فقال: «أيها الناس: إني واللّه ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. فمن قال لنا برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا». وبعد مقتل مصعب بن الزبير دخل عبد الملك بن مروان الكوفة ثم خطب في أهلها فقال: «أيها الناس: إن الحرب صعبة مرَّة، وإن السلم أمن ومسرَّة. ولقد زبتنا الحرب وزبنّاها، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمّنا. أيها الناس: ألا فاستقيموا على سبل الهدى ودعوا الأهواء المردية، وتجنّبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلّفونا أعمال المهاجرين والأنصار، وأنتم لا تعملون أعمالهم. ولا أظنّكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجَّة عليكم إلاّ عقوبة. فمن شاء أن يعود بعد لمثلها فليعد». أوصى عبد الملك أميرًا سيّره بجيش إلى أرض الروم فقال له: «أنت تاجر اللّه لعباده، فكن كالمضارب الكيّس الذي إن وجد ربحا اتّجر، وإلاّ تحفّظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة. وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذرا من احتيال عدوّك عليك». وخطب يومًا خطبة فيها زهد فقال: «أيها الناس: اعملوا للّه رغبة ورهبة، فأنكم نبات نعمته وحصيد نقمته. ولا تغرس لكم الآمال إلاّ ما تجتنيه الآجال، وأقلّوا الرغبة في ما يورث العطب، فكل ما تزرعه

العاجلة تقلعه الآجلة. واحذروا الجديدين فإنهما يكرّان عليكم، إن عقبى من بقي لحوق بمن مضى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى». ويروى أنه لما اشتد على عبد الملك مرضه وقاربته الوفاه قال: أصعدوني على شرف، فأصعدوه إلى موضع عالي، فجعل يتنسم الهواء ثم قال: «يا دنيا ما أطيبك، وإن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنَّا منك لفي غرور».

كانت بادرة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين النواة التي ساعدت على التوسع في حركة الترجمة في العصر العباسي، حتى وإن كانت حركة النقل والترجمة في العصر الأموي قائمة على نطاق ضيق، وكانت تعتمد على بعض الأفراد من الخاصة أو بعض الأطباء من الأعاجم.

كان لعبد الملك بن مروان دور كبير في تعميم الإعجام في المصاحف، فعندما كُتبت المصاحف في عهد عثمان بن عفان كُتبت خالية من النقط والشكل، حتى تحتمل قراءتُها الأحرف السبعة التي نزل بهاالقرآن، وعندما أرسلها إلى الأمصار رضي بها الجميع، واستمروا على ذلك أكثر من أربعين سنة. خلال هذه الفترة توسعت الفتوح، ودخلت أمم كثيرة لا تتكلم العربية في الإسلام، فتفشت العجمة بين الناس وكثر اللحن. وكان أول من التفت إلى نقط المصحف الشريف أبو الأسود الدؤلي وقال لكاتبه حين بدأ بإعراب القران: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة نقطتين، وقيل إنه جعل للفتح نقطة فوق الحرف، وللضم نقطة إلى جانبه، وللكسر نقطة أسفله، وللتنوين نقطتين. أما نقط الإعجام، فهو ما يدل على ذات الحرف، ويميز المتشابه منه لمنع العجمة، وقد دعت الحاجة إليه عندما كثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم، وكثر التصحيف في لغة العرب. اختلفت الآراء في أول من أخذ بهذا النقط، وأرجحها في ذلك ما ذهب إلى أن أول من قام به هما: نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، وذلك عندما أمر

الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق أن يضع علاجًا لمشكلة تفشي العجمة، وكثرة التصحيف، فاختار كلا من نصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر لهذه المهمة، وبعد البحث والتروي، قررا إحياء نقط الإعجام، وقررا الأخذ بالإهمال والإعجام، مثلا الدال والذال، تهمل الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة فوقية، وكذلك الراء والزاي، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين، أما السين والشين، فأهملت الأولى وأعجمت الثانية بثلاث نقط فوقية لأنها ثلاث أسنان، أما الباء والتاء والثاء والنون والياء، فأعجمت كلها، والجيم والحاء والخاء، أعجمت الجيم والخاء، وأهملت الحاء، أما الفاء والقاف، فإن القياس أن تهمل الأولى وتعجم الثانية، إلا أن المشارقة نقطوا الفاء بواحدة فوقية، والقاف باثنتين فوقيتين أيضًا، أما المغاربة فذهبوا إلى نقط الفاء بواحدة تحتية، والقاف بواحدة فوقية. وكتب هذا النوع من النقط بلون مداد المصحف، حتى لا يشتبه بنقط الإعراب، واستمر الوضع على ذلك حتى نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، حيث قام الخليل بن أحمد الفراهيدي بالإبقاء على الإعجام وتقنين التشكيل، فوضع ثماني علامات: الفتحة، والضمة، والكسرة، والسكون، والشدة، والمدة، والصلة، والهمزة.

العمارة والبناء

بناء الكعبة

عندما قتل جيش بني أمية ابن الزبير عام ٧٣ هـ، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويعلمه بما فعل ابن الزبير في بناء الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يقر طول الكعبة على ما فعله ابن الزبير، وأن يعيد الحجر كما كان في عهد النبي، فنقض الحجاج الكعبة وأعاد بناءها كما طلب منه عبد الملك بن مروان. روى مسلم عن حديث عطاء قال: «فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر

إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه». ثم إن عبد الملك صح له حديث عائشة فندم على ما فعل، فقد ورد في صحيح مسلم عن أبي قزعة: «أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين يقول سمعتها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر فإن قومك قصروا في البناء، فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا، قال لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير».

بناء قبة الصخرة

قام عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة، حيث بدأ العمل في بنائها سنة ٦٦ هـ / ٦٨٥م، وتم الفراغ منها سنة ٧٢ هـ / ٦٩١م. وقد أشرف على بنائها المهندسان العربيان هما: رجاء بن حيوة وهو من بيسان فلسطين، وكان المسؤول عن التصميم والشكل العام للبناء، ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان وهو من القدس، وكان المسؤول عن النواحي العملية في هندسة العمارة. فكر عبد الملك بن مروان أن يغطي الصخرة المقدسة بنوع من البناء يتناسب وقباب المدينة المرتفعة، وقيل إن عبد الملك بن مروان حين فكر في بناء قبة عالية تغطي الصخرة رصد لبنائها خراج مصر لسبع سنين، وحين أنفقت هذه الأموال على البناء بقي منها مائة ألف دينار، فأمر عبد الملك بن مراون بها جائزة للرجلين المشرفين على البناء وهما رجاء بن حيوة الكندي ويزيد سلام فرفضا قائلين: «نحن أولى أن نزيد من حلي نسائنا فضلاً عن أموالنا فاصرفه في أحب الأشياء إليك»، فأمر عبد الملك بأن يصنع منها صفائح ذهبية تكسى بها القبة من الخارج.[1]

ذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك لما أمر ببناء القبة أقاموا له قبة صغيرة لطيفة كنموذج لقبة الصخرة، ولها أحد عشر ضلعًا من الخارج، وستة أضلاع تحمي القبة الصغيرة، والمعروفة بقبة السلسلة قرب قبة الصخرة، فلما انتهت زارها وقال: «ابنوا قبة أكبر من هذه باثني عشر ضعفًا وانقصوا من الأضلاع»، فتم تجهيز وإعداد الشكل لقبة الصخرة بأضلعها الثماني، ثم بدء العمل بها، وقد كانت قبة السلسلة بعد بنائها المكان الرئيسي للإشراف على بناء قبة الصخرة. يأخذ تخطيط قبة الصخرة شكل مثمَّن خارجي، به أربعة مداخل محورية يتقدم كلاً منها سقيفة محمولة على أعمدة، يليها مثمن داخلي مكون من دعائم رئيسة، وبين كل دعامتين عمودان يكونان ثلاثة عقود تكون في مجموعها أربعة وعشرين عقدًا داخل التثمينة، ودائرة من الأعمدة والأكتاف مكونة من أربعة دعائم كبيرة بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة تحمل ستة عشر عقدًا مدببًا، وقد صنعت القبة من الخشب وغطيت من الخارج بطبقة من الرصاص، ويوجد بالرقبة ١٦ نافذة، وقد أحاطت الدائرة بالصخرة حتى يمكن الطواف حولها.[٩٤] وصف ابن كثير في كتابه البداية والنهاية مدى جمالية المسجد بقوله: «ولم يكن يومئذ على وجه الارض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس، بحيث إن الناس التهوا بها عن الكعبة والحج، وبحيث كانوا لا يلتفتون في موسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس، وافتتن الناس بذلك افتتانا عظيما، وأتوه من كل مكان، وقد عملوا فيه من الاشارات والعلامات المكذوبة شيئا كثيرا مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك، وإلى زماننا، وبالجملة أن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الارض بهجة ومنظرا، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شئ كثير، وأنواع باهرة».

بناء واسط

عندما عيَّن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي أميرًا علي العراق سنة ٧٥ هـ الموافق ٦٩٤م، اضطر الحجاج للتنقل كثيرًا بين المصرين الكوفة والبصرة، حسبما تقتضيه الظروف الحربية والسياسية آنذاك، وكان ذلك أحد الأسباب التي دعت الحجاج إلي التفكير في بناء مدينة تكون مقرًا لادارة ولايته الواسعة يطمئن بها علي نفسه وأعوانه، ويجمع فيها العناصر الموالية له وفي مقدمها العناصر الشامية، ليتمكن من اخماد كل ثورة تقوم عليه في المستقبل، وقد ذكر أبو الحسن بَحْشَل سبب بناء المدينة بقوله: «وليّ عبد الملك بن مروان الحجاج العراق فأقام بها سنة فقال: أتخذ مدينة بين المصرين أكون بالقرب منهما، أخاف أن يحدث في أحد المصرين حدث وأنا في المصر الآخر فمر بواسط القصب فأعجبته، فقال: هذا وسط المصرين».

وذكر الطبري سببًا آخر لبناء مدينة واسط يتمثل في رغبة الحجاج تجنب الاحتكاك بين جند الشام وسكان المدن العراقية البصرة والكوفة. جاء اختيار موقع مدينة واسط بعد بحث وتدقيق واسعين في الأرض الواقعة بين المصرين، ذكر ياقوت الحموي: «أن الحجاج قال لرجل ممن يثق بعقله: امض وابتغ لي موضعًا في كرش من الأرض ابني فيها مدينة وليكن علي نهر جار، فاقبل ملتمسًا ذلك حتي سار إلي قرية فوق واسط بقليل يقال لها واسط القصب، فبات بها واستطاب ليلها واستعذب انهارها، واستمرأ طعامها وشرابها فكتب إلي الحجاج بالخبر ومدح له الموضع، فكتب اليه: اشتر لي موضعًا ابني فيه مدينة، واشتري الحجاج موقع المدينة من صاحبها وهو أحد دهاقين الفرس من داوردان بعشرة الآف درهم، ووعد بأن يرعي جواره ويقضي ذمامه ويحسن اليه». موقع المدينة يقع علي نهر دجلة، ويتوسط بين مدن الكوفة والبصرة والمدائن والأحواز، ويقع علي طرق التجارة النهرية والطرق البرية. أما سبب تسميتها بهذا الاسم، فهو لأن الموضع الذي اختاره الحجاج لبناء مدينته كان يسمي واسط القصب فسميت نسبة

لذلك، وهذا مايذكره ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، كما ذكر أن أرضها كانت أرض قصب لذلك سميت واسط القصب.

اختلفت المصادر في تحديد سنة بناء المدينة، إلا إأن معظمها يجمع علي أن عملية البناء تمت بين الأعوام (٨٣ هـ - ٨٦ هـ / ٧٠٢ - ٧٠٥) أي في أواخر حكم عبد الملك بن مروان الذي استأذنه الحجاج في إنشاء المدينة.

بعض الباحثين يرجح بناء مدينة واسط سنة ٨٣ هـ الموافق ٧٠٢م معززين رأيهم بما وصلهم من مسكوكات فضية مضروبة بمدينة واسط، حيث تعد هذه المسكوكات وثائق أساسية، ويحتفظ المتحف العراقي بدرهم فضي مضروب بواسط سنة ٨٣ هـ، كما ويحتفظ بدرهم آخر ضرب سنة ٨٤ هـ، وهذا أحد أدلة أن بناء المدينة كان قبيل سنة ٨٣ هجرية، وهي خامس مدينة تمصرت في الإسلام بعد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وثالث مدينة في العراق بعد البصرة والكوفة.

كانت واسط تقع علي الجانب الغربي لنهر دجلة يقابلها علي الجانب الشرقي مدينة قديمة تسمي كسكر، وقد ربط المدينتين جسر علي كل جانب من جانبي النهر، وكان يحيط بالمدينة سور وخندقان. بني الحجاج في داخل المدينة قصره الذي اشتهر بقبته الخضراء العالية، وأقيم القصر فوق مساحة من الأرض مربعة الشكل أبعادها أربعمئة ذراع في أربعمئة ذراع، وكان له أربعة أبواب كل منها يفضي إلي طريق عرضه ثمانون ذراعًا. وإلي جانب القصر بُني المسجد الجامع، وكانت مساحته مائتي ذراع في مائتي ذراع، وجعل علي مقربة من القصر سوقًا كبير، وكان في الجانب الغربي سجن الحجاج المعروف بالديماس. بلغت تكاليف بناء مدينة واسط مبالغ كبيرة، ذكر بحشل: «إن ما أنفقه الحجاج قد بلغ خراج العراق لمدة خمس سنين، وإن كان التقدير مبالغًا به إلا أنه يدل علي أن بناء مدينة واسط قد كلف أموالا كثيرة»، في حين قال ياقوت الحموي: انفق الحجاج علي بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم،

فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن هذه نفقة كثيرة وإن احتسبها لك امير المؤمنين وجد في نفسه فقال فما نصنع، قال: الحرب لها أجمل، فاحتسب منها في الحروب بأربعة وثلاثين ألف ألف درهم، واحتسب في البناء تسعة آلاف ألف». بعد أن سكن الحجاج مدينته الجديدة، أسكن إلي جانب جنده الشامي مجموعات أخري من السكان العرب من وجوه أهل البصرة والكوفة. كانت واسط في عهد عبد الملك والحجاج مركزًا لادارة العراق والمشرق الإسلامي، وقام الحجاج وخلفائه من بعده بإنشاء دار لضرب المسكوكات والنقود. ظلت المدينة في توسع وازدهار حتي هُجرت وانتهت، بسبب تعرضها للغارات الخارجية وتحول مجري نهر دجلة الغربي عنها إلي مجراه الشرقي الحالي في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، حيث هجرها سكانها وتحولت بعد ذلك إلي انقاض وبقايا خرائب.

بناء تونس

قام حسان بن النعمان الغساني عام ٨٢ هـ ببناء مدينة تونس لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة الذي حدث عام ٧٨ هـ. بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة. اختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًا ومركزًا للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب، واستعان بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصرعبد العزيز بن مروان بناءً على توجيه الخليفة عبد الملك. كان الهدف الرئيسي من بناء تونس وضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على ساحل إفريقية، وكان الحل المتاح أما المسلمين هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي، فأوعز عبد الملك بن مروان لشقيقه والي مصر عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من المهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية. سعى حسان عند

بنائه المدينه لإيجاد حياة اجتماعية قادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة، وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين، وتنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي، وصارت المدينة معسكرًا حربيًا ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات.

خلال عهد الخلافة العباسية ازدهرت مدينة تونس وكانت جزءا من عدة دول إسلامية مستقلة تعاقبت على حكم المنطقة، من أهمها الأغالبة والفاطميون والمرابطون والموحدون، ثم أصبحت عاصمة للدولة الحفصية في القرن السابع الهجري، وكانت مركزا تجاريا مهمًا في المتوسط وأوروبا. في ١٥٩١ حكم العثمانيون تونس، ثم حكمها البايات (ولاة عسكريون) بطريقة شبه مستقلة عن العثمانيين، وفي تلك الفترة ازدهرت المدينة وشكلت ممرًا تجاريًا كبيرًا ومركزًا للتحكم في الملاحة البحرية وحماية السواحل.

أما عن قرطاجنة التي استعادها الروم سنة ٧٨ هـ بعد حملة حسان بن النعمان الأولى، فقد سار إليها حسان، وطرد منها الحامية الرومية التي استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا، واستولى على المدينة عنوة وقام بتخريبها حتى صارت كأمس الغابر كما عبر المؤرخ ابن عذارى. ولم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر، حتى جاء الفرنسيين عندما احتلوا تونس، فأحيوها من جديد في صورة ضاحية لمدينة تونس الحالية، وعرفت باسمها الفرنسي، وهو قرطاج وقد أصبحت الآن جزءا من مدينة تونس.

عمر بن عبد العزيز

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (٦١هـ\٦٨١م - ١٠١هـ\٧٢٠م)، هو ثامن الخلفاء الأمويين. ولد سنة ٦١هـ في المدينة المنورة، ونشأ فيها عند أخواله من آل عمر بن الخطاب، فتأثر بهم

وبمجتمع الصحابة في المدينة، وكان شديد الإقبال على طلب العلم. وفي سنة ٨٧هـ، ولّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك على إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ، فصار والياً على الحجاز كلها، ثم عُزل عنها وانتقل إلى دمشق. فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة قرّبه وجعله وزيراً ومستشاراً له، ثم جعله ولي عهده، فلما مات سليمان سنة ٩٩هـ تولى عمر الخلافة.

تميزت خلافة عمر بن عبد العزيز بعدد من المميزات، منها: العدلُ والمساواة، وردُّ المظالم التي كان أسلافه من بني أمية قد ارتكبوها، وعزلُ جميع الولاة الظالمين ومعاقبتُهم، كما أعاد العمل بالشورى، ولذلك عدّه كثير من العلماء خامس الخلفاء الراشدين، كما اهتم بالعلوم الشرعية، وأمر بتدوين الحديث النبوي الشريف. استمرت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، حتى قُتل مسموماً سنة ١٠١هـ، فتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة من بعده.

نسبه وأسرته

- **هو:** أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بنالنضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأموي القرشي المدني ثم المصري.
- **والده:** هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من خيار أمراء بني أمية، بقي أميراً على مصر أكثر من عشرين سنة. ولما أراد الزواج قال لقيّمه: «اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح»، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب (وقيل اسمها ليلى).
- **أمه:** أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ووالدها: أبو عمرو عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وكان طويلاً

جسيماً من نبلاء الرجال، ديِّناً خيِّراً صالحاً، وكان بليغاً فصيحاً شاعراً. وأمه: هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة.

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال:

«بينما أنا وعمر بن الخطاب ﷺ وهو يَعُسّ (العُس: تقصّي الليل عن أهل الريبة) بالمدينة إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: «يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء»، فقالت لها: «يا أمتاه، أوما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟»، قالت: «وما كان من عزمته يا بنية؟»، قالت: «إنه أمر مناديا فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء»، فقالت لها: «يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر»، فقالت الصبية لأمها: «يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء»، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: «يا أسلم، عَلِّم الباب واعرف الموضع»، ثم مضى في عسه. فلما أصبحا قال: «يا أسلم، امض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟»، فأتيت الموضع فنظرت، فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: «هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟»، فقال عاصم: «يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني»، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز.»

إخوته: كان لعبد العزيز بن مروان (والد عمر بن عبد العزيز) عشرة من الولد، وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم، وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزيّان وأم البنين. وعاصم هو من تُكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فكنيتها أم عاصم.

مولده ونشأته

مولده

ولد عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة سنة ٦١هـ، وقد اختلف المؤرخون في سنة ولادته، والراجح أنه ولد عام ٦١هـ، وهو قول أكثر المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يُذكر من أنه توفي وعمره أربعون سنة، حيث توفي عام ١٠١هـ.

وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر، وهذا القول ضعيف لأن أباه عبد العزيز بن مروان إنما تولى مصر سنة ٦٥هـ بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير، فولّى عليها ابنه عبد العزيز، ولم يُعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبني مروان في المدينة، وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد.

نشأته

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة، فلما شب وعقل وهو غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: «يا أمه، أنا أحب أن أكون مثل خالي»، يريد عبد الله بن عمر، فتؤفف به ثم تقول له: «اغرب، أنت تكون مثل خالك»، وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها، فقال لها: «يا ابنة أخي، هو زوجك فالحقي به»، فلما أرادت الخروج قال لها: «خلفي هذا الغلام عندنا (يريد عمر) فإنه أشبهكم بنا أهل البيت»، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، فقال لها: «وأين عمر؟»، فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر، ثم قدم

عمر على أبيه مسلِّماً. وهكذا تربى عمر بين أخواله بالمدينة المنورة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة.

وكان عمر بن عبد العزيز منذ صغره شديد الإقبال على طلب العلم، وكان يحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح، زاخرةً بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب.

وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ، وقد تأثر كثيراً بالقرآن الكريم، وكان يبكي لذكر الموت مع حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: «ما يبكيك؟»، قال: «ذكرت الموت»، فبكت أمه حين بلغها ذلك.

طلبه للعلم

عاش عمر بن عبد العزيز في زمن ساد فيه مجتمعُ التقوى والإقبال على طلب العلم، فقد كان عدد من الصحابة لا يزالون بالمدينة، فقد حدث عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي محمد، كما أمّ بأنس بن مالك فقال: «ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى».

تربى عمر بن عبد العزيز على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها، فقد اختار عبد العزيز (والد عمر) صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر، فتولى صالح تأديبه، وكان يُلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر عن الصلاة مع الجماعة، فقال له صالح بن كيسان: «ما يشغلك؟»، قال: «كانت مرجّلتي (مسرحة

شعري) تسكن شعري»، فقال: «بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟»، فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه.

ولمّا حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: «ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام».

وكان يحرص على التشبه بصلاة النبي محمد أشد الحرص، فكان يُتمُّ الركوع والسجود ويخفِّف القيام والقعود، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبِّح في الركوع والسجود عشراً عشراً.

ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً، ونهل من علمه وتأدب بأدبه وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: «لَمجلسٌ من الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إليّ من ألف دينار».

وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: «لو كان عبيد الله حيًا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا». وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة،[1]قال عنه الزهري: «كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم».

ومن شيوخه أيضًا سعيد بن المسيب، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر.

ومنهم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: «كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به».

وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على الخليفة سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: «ما استطاع خالك أن يلبس ثيابًا فاخرة أحسن من هذه يدخل فيها على أمير المؤمنين؟»، وعلى المتكلم ثياب

سريَّة لها قيمة، فقال له عمر: «ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك».

وتربى عمر وتعلم على أيدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين؛ ثمانية منهم من الصحابة وخمسة وعشرون من التابعين.

في عهد الوليد بن عبد الملك

كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير في نصح الخلفاء وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة، إذ يحتل عمر مكانة متميزة في البيت الأموي، فقد كان عمه عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكّره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها:

«أما بعد، فإنك راعٍ، وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: كل راعٍ مسؤول عن رعيته، اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ .

ويقال بأن عبد الملك قد ولّى عمر بن عبد العزيز على "خناصره" ليتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر،[٣٢] ويقال إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه عليها. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه عبد الملك وحزن عليه حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: «يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله راعني وهالني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك».

إمارته على المدينة المنورة

في ربيع الأول من عام ٨٧هـ، ولّى الخليفة الوليد بن عبد الملك عمرَ إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها. واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

- الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.
- الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة؛ لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.
- الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يُخرجه للناس في المدينة.

فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة، وفرح الناس به فرحًا شديداً.

وقام عمر بتكوين مجلس للشورى بالمدينة سمي بـ"مجلس فقهاء المدينة العشرة"، فعندما جاء الناس للسلام على أمير المدينة الجديد وصلّى بهم، دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني».

وفي إمارته على المدينة المنورة وسّع المسجد النبوي بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مئتي ذراع في مئتي ذراع، وزخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع أنه كان يكره زخرفة المساجد.

وفي سنة ٩١هـ، أي في أثناء إمارته على المدينة المنورة، حج الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة.

عزله عن إمارة المدينة

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة، ففي سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: «إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك، فتنحّ عن المدينة».

وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه، حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: «إن من قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن»، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر عبد العزيز.

وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء

عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به.

انتقاله إلى دمشق

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي، ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: «يا مزاحم، نخشى أن نكون من نفت المدينة»، يشير بذلك إلى قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد».

وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته في دمشق بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها. ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة، يهمهم إخضاع الناس بالقوة وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان يقول: «الوليد بالشام، والحَجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف (أخو الحجّاج) في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز،وقرة بن شريك في مصر، امتلأت والله الأرض جوراً».

في عهد سليمان بن عبد الملك

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة قرّب عمرَ وأفسح له المجال واسعاً، حيث قال: «يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى (ولم يكن بتدبيره علم) فما رأيتَ من مصلحة العامة فمر به»،وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته وسفره. وكان

سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: «ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني». وقال في موضع آخر: «يا أبا حفص، ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي».

كان لعمر بن عبد العزيز أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحَجّاج وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة خالد القسري البجلي، ووالي المدينة عثمان بن حيان، والأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فقد أورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس عن رأي عمر: إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها. وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: «مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها».

وقدِم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: «كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟»، قال: «رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم». وخرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: «إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟»، فقال سليمان: «خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها»، فقال عمر: «أوخير من ذلك يا أمير المؤمنين؟»، قال: «وما هو؟»، قال: «قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك»، فجلس سليمان فردّ المظالم.

وأقبل سليمان بن عبد الملك ومعه عمر على معسكر سليمان، وفيه الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: «ما تقول يا عمر في هذا؟»، قال: «أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عن ذلك كله»، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غرابٌ قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة، فقال له سليمان: «ما تقول في هذا يا عمر؟»، فقال: «لا أدري»، فقال: «ما ظنك أنه يقول؟»، قال:

كأنه يقول: «من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟»، فقال له سليمان: «ما أعجبك!»، فقال عمر: «أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه».

ولما وقف سليمان وعمر بعرفة، جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: «هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسؤول عنهم غداً»، وفي رواية: «وهم خصماؤك يوم القيامة»، فبكى سليمان وقال: «بالله أستعين». وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته، يَحوطه بنصحه ويشاركه مسؤولياته.

مبايعته بالخلافة

اقترح الفقيه رجاء بن حيوة الكندي على الخليفة سليمان بن عبد الملك في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، قال ابن سيرين: «يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وكانت سنة وفاته سنة ٩٩هـ وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوش في خاتمه: "أؤمن بالله مخلصاً"».

وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر، ومنها ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز، ونظر في المرآة فقال: «أنا والله الملك الشاب»، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: «ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح»، فقال سليمان: «كتاب أستخير الله فيه وأنظر، ولم أعزم عليه»، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: «ما ترى في داود بن سليمان؟»، فقلت: «هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت»، قال: «يا رجاء فمن ترى؟»، فقلت: «رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يُذكر»، فقال: «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟»، فقلت: «أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً»، فقال: «هو على ذلك، والله لئن ولّيته ولم أولِّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن

فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده»، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم، قال: «فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به»، قلت: «رأيك»، فكتب بيده:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم.»

وختم الكتاب، فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: «اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي ومُرهم فليبايعوا من وليت». ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: «سمعنا وأطعنا لمن فيه»، وقالوا: «ندخل فنسلم على أمير المؤمنين»، قال: «نعم»، فدخلوا فقال لهم سليمان: «هذا الكتاب (وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة) هذا عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب»، فبايعوا رجلاً، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء ... قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يُدخل على الخليفة أحداً. فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق فقلت: «بايعوا»، قالوا: «قد بايعنا مرة ونبايع أخرى!»، قلت: «هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم»، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً، فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: «قوموا إلى صاحبكم فقد مات»، قالوا: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: «لا نبايعه أبداً»، قلت: «أضرب والله عنقك، قم فبايع»، فقام يجر رجليه. وأخذت بضبعي عمر فأجلسته على المنبر، وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه، فلما انتهى هشام إلى عمر

قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، فقال عمر: «نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي لكراهتي له».

خطبته الأولى بعد استخلافه

صعد عمر المنبر وقال في أول لقاء له مع الأمة بعد استخلافه:

«أيها الناس، إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم.»

فصاح الناس صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولِّ أمرنا باليمن والبركة»، وهنا شعر أنه لا مفر له من تحمل مسؤولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة:

أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ ولكني منفّذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً. أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات... وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها،

وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً.

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال:

يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن، فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ.

ثم نزل. وهكذا عُقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ.

تنظيم الولايات

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها براً وبحراً، فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنح الرجل عن دابته فتقطع بالسوق، ولجّ سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولي رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب، وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة

وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس.

وفي الأندلس ولّى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه بإخلاء الأندلس من الإسلام إشفاقاً عليهم، إذ خشي تغلّب العدو عليهم لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين.[1]

غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل من الأندلس، فكتب إلى الخليفة يقول: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك»، وأزال الأندلس عن عمالة أفريقية.

وفي المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال مَن وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: «لا تسعنا مرو (قاعدة خراسان)»، فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: «اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم».

وفي جبهة بلاد السند، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب، وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر.

وفي أذربيجان، أغار الترك على المسلمين، فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً.

وفي سنة ١٠٠هـ، أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها.[٧٥] وفي ١٠١هـ، أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن

هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، وأمر بترحيل أهل طرندة وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو.[٧٦] وأراد أن يهدم المصيصة لتعُّرضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية "كفربيا"، واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً، وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن أنطاكية من غزوات الروم المتكررة.

وكان عمر حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقصّ عليه قصة رجل أسير في بلد الروم أجبر على ترك الإسلامواعتناق النصرانية، قائلين له: «إن لم تفعل سملت عينك»، فاختار دينه على بصره فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: «أقسم بالله لأن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي»، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه.

إدارة الدولة

تميزت خلافة عمر بن عبد العزيز بعدد من المميزات، أهمها:

العدل

كان عمر بن عبد العزيز يرى أن المسؤولية تتمثل بالقيام بحقوق الناس، والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة.

وقد أحب الاستزادة في فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة، فكتب إلى الحسن البصري يسأله عن ذلك، فأجابه الحسن:

«الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده؛ يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم في حياته، ويدخرهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير

المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله.

وقد أحبّ عمر أهل البيت وأعاد إليهم حقوقهم، وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب: «يا بنت علي، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم، ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي».

ردّ المظالم

بدأ عمر بن عبد العزيز برد المظالم بنفسه، روى ابن سعد: لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: «إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي»، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم، فقال: «هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب»، فخرج منه.

وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: «كان سيف أبي محلى بفضة فنزعها وحلاه حديداً».

وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، فلما استخلف نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غني، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله في السبيل.

أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومه، كما أرجع عمر للرجل المصري أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره.

ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين مع شدة حاجة أهله إلى هذا المال، كما أمر مولاه مزاحماً برد المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله.

وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم، فقد ثنّى ذلك بأهل بيته وبني عمومته من الأمويين، فقد رأى أن الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، وفوجيء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها، فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، فأمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين.

ولقد كانت لعمر سياسة محددة في رد مظالم بني أمية، فحين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان، وسألوه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، أراد عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أن يردهم عن أبيه، فقال له عمر: «وما تبلغهم؟»، قال: «أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٣] »، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموي، فجمعهم وطلب إليهم أن يُخرجوا ما بأيدهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق.

ولم تمضِ سوى أيام معدودات حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع.

وعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها، فقالت: «إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك»، قال: «ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم»، فقالت: «إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً»، فقال: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره»، فدعا بدينار وجنب ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفح على الدينار فإذا احمرّ تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر، فقال: «أي عمة، أما ترثين لابن أخيك من هذا؟»، ثم قال: «إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم، فلم يُروَ أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه»، فقالت: «حسبك، قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً»، فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه.[٩٤] وجاء في رواية أنها قالت لهم: «أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده»، فسكتوا.

ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصب أرضه، فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: «كم أنفقت في مجيئك إلي؟»، قال: «يا أمير المؤمنين، تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف؟»، فأجابه عمر: «إنما رددت عليك حقك»، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً تعويضاً له عن نفقات سفره. وقال ابن موسى: «ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات».

وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت، وقد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فردع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً، فإن لم يردّ الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم.

وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له».

عزل جميع الولاة الظالمين

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، عمد إلى جميع الولاة والحكام الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان صاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري، فقال عمر بن عبد العزيز: «يا خالد، ضع هذا السيف عنك، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبداً»، ثم قال لعمرو بن مهاجر: «والله إنك لتعلم يا عمرو إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قربة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي».

وقد رأى عمر رجلاً كثير الصلاة، فأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: «يا فلان، إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين، فمالي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟»، فقال الرجل: «لك عطاء سنة»، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط في الاختبار.

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي، وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل؛ فكان يقطع الأيدي في خلاف دون تحقق شروط القطع، فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل جُنُد سنة، ويُقيّد ويُحلّ عنه القيد عند كل صلاة ثم يُرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم بفلسطين سنة، ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة، فردّ أسامة على مصر في عمله.

العمل بالشورى

اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: «إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي، ولا يُفقد معهما حزم».

وقد تبين مبدأ الشورى في أول يوم من خلافته، حيث قال للناس: «أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي»، فصاح الناس صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولّ أمرنا باليمن والبركة».

وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال في خطبته الأولى: «وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ»، ثم نزل.

وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه في الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا.

وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله، بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين.

وكان عمر يستشير العلماء ويطلب نصحهم في كثير من الأمور، أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرطبي، ورجاء بن حيوة، فقال: «إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليّ».

كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال،وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لمّا تولّى الخلافة، فقرّب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، وكان يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمرو بن مهاجر: «إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟»،[١٠٦] وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره.

نشر العلم بين الرعية

حرص عمر على نشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، وقد ورد عنه أنه قال في إحدى خطبه: «إن للإسلام حدوداً وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلأن أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص».

وقال أيضًا: «فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنّة يُعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً»، وفي موضع آخر قال: «والله لولا أن أُنعش سُنّة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقًا».

ولهذا بعث عمر العلماء لتعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وحواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: «ومُر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله

من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم»، ومما كتب إلى بعض عماله: «أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت».

كما أمر عماله أن يُجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو. وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقّهون أهلها.

تدوين الحديث النبوي

نهى النبي محمد عن كتابة غير القرآن في أول الأمر؛ مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز.

وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه.

ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، أي الذي قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان (والد عمر) عندما كان أميراً على مصر، بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: «أيها الناس، قيدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة».

وأصدر عمر أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث النبي محمد، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، وخشي من فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة وخلطها بالصحيح من كلام النبي محمد، بسبب الخلافات المذهبية

والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: «لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه».

ورأي الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة عمر بن عبد العزيز، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين الحديث النبوي، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة.

كتب عمر إلى الإمام أبي بكر بن حزم، وهو أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفشوا العلم، ولتُجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً».

وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله».

كما وجه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً». وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبّى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطوّلاً يوضح ذلك بالتفصيل.

ومن هنا قال ابن حجر العسقلاني: «وأول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد».

بل إن عمر وجّه أوامرَه إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع الحديث، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: «أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله».

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من الحديث، وروى: «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء».

وفاته

اختلفت الروايات عن سبب مرض عمر بن عبد العزيز وموته، إذ تذكر بعض الروايات أن سبب مرضه وموته هو «الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس» كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن لهيعة.

إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته؛ وهو أنه سُقي السم، وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر التي قامت على العدل وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التي كانت في أيديهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه، فقد رُوي أنهم وعدوا غلام عمر بألف دينار وأن يُعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما همّ بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر، فشربه ثم أحس به منذ أن وقع في بطنه.

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: «ما يقول الناس فيّ؟»، قلت: «يقولون إنك مسحور»، قال: «ما أنا بمسحور»، ثم دعا غلاماً له فقال له: «ويحك ما

حملك على أن تسقيني السم؟»، قال: «ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق»، قال: «هات الألف»، فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال وقال: «اذهب حيث لا يراك أحد».

وقيل أنه مات بسبب السل.

وتوفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة ١٠١هـ على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يومًا، وتوفي بدير سمعان من أرض معرة النعمان بالشام، بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات كان عمره لما توفي أربعين سنة.

واختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفي، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة أو انعدامها، قال ابن الجوزي: بلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : «عظني»، قال: «مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهمًا. ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنًا، فقسمت تركته، وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حَمَلَ في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه».

وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك وهو في مرض الموت قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم،

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك،

السلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني كتبت

إليك وأنا دنف من وجعي، وقد علمت أني مسؤول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً، يقول تعالى فيما يقول: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ»[١٣٨] فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يَمُنّ علي برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله والرعيةَ الرعيةَ، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير.

ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز

يقع الضريح في قرية دير شرقي الواقعة شرق مدينة معرة النعمان التابعة لمحافظة إدلب في سوريا، بناء الضريح الأساسي عبارة عن بناء قديم يعود إلى العهد المملوكي، وقد ظل يعاني الإهمال حتى تسعينيات القرن الماضي عندما قامت وزارة الآثار والمتاحف (وبجهود من أمين متحف معرة النعمان الباحث كامل شحادة) بتأهيل البناء بالكامل وبناء قبة تكريمية فوق باحة الضريح، وإنشاء حديقة عامة حوله يؤمها الزوار والسياح من كل البلاد ليقفوا أمام ضريح هذا الخليفة الذي كان مضرب الأمثال في ورعه وتقواه وعدله.

موقع الضريح عبارة عن دير يعود إلى القرن الخامس الميلادي، حيث كان يسكنه الراهب سمعان وعندما أصبح الخليفة عمر بن عبد العزيز والياً على خناصرة قرب حلب نشأت علاقة قوية بينه وبين الراهب سمعان حيث كان الخليفة عمر يكثر من زيارة هذه المنطقة حيث أراضي أمه وأخواله، وحين أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين استمرت هذه العلاقة، وتطورت هذه العلاقة حتى اشترى من الراهب سمعان مكانا في الدير لكي يدفن فيه، وقد أصر أن يدفع ثمنه للراهب الذي أراد أن يعطيه إياه

هدية حباً بجواره، ولما توفي سنة ١٠١ هـ[1] دفن مع زوجته فاطمة بنت عبد الملك في هذا القبر، وقد زاره العديد من السلاطين الأيوبيين والمماليك ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ .

شخصيته

صفته الشكلية

كان عمر بن عبد العزيز أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة، وقد خطه الشيب.

وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية.

مكانته العلمية

اتفقت كلمة المترجمين لعمر بن عبد العزيز على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام، وقال فيه مجاهد: «أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمَّنا منه»، وقال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء»، وقال فيه الذهبي: «كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً، يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم معالزهري».

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس، وهي رسالة قصيرة، وفيها يحتج الليث مراراً بصحة قوله بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل، وجعلوا له وصفاً يتميَّز به عن جدّه لأمه عمر بن الخطاب، قال القرشي في الجواهر المضيئة: «فائدة: يقول

أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير؛ يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور».

ويُكثر الشافعية من ذكره في كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في كتاب "تهذيب الأسماء واللغات"، وقال في أولها: «تكرر في المختصر والمهذب»، وهما من كتب الفقه الشافعي.

وأما المالكية فيُكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكره في الموطأ في مواضع عديدة محتجاً بفتواه وقوله. وأما الحنابلة فكذلك يذكرونه كثيراً، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: «لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز»، وكفاه هذا،وقا الإمام أحمد أيضاً: «إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله».

ألقابه

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز **المجدد الأول في الإسلام**، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: «يروى في الحديث: إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز».

ويقول ابن حجر العسقلاني: «إن إجماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل».

وكان عمر بن عبد العزيز يلقب بـ"**الأشجّ**" أو "**أشجّ بني مروان**"؛ وذلك لأنه عندما كان صغيراً دخل إلى اصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل، فضربه فرس في وجهه فشجّه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: «إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد»، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: «الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك». وذلك أن عمر بن الخطاب كان يقول: «إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً»، فقد رأى عمر بن الخطاب رؤيا تشير إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير عمر حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس، بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه، فكلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً.

ويُذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، وكان يقول: «ليت شعري من ذو الشين (أي العلامة) من ولدي الذي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً؟»، فكان عبد الله بن عمر يقول: «إن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة، فحسبوه المبشر الموعود، حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز».

زوجاته وذريته

لما مات والد عمر بن عبد العزيز أخذه عمه الخليفة عبد الملك بن مروان، فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك، ، والخليفة جدها مروان بن الحكم، وهي أخت الخلفاء: الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها فهو عمر بن عبد العزيز، حتى قيل عنها: «لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها»، وقد ولدت له إسحاق ويعقوب وموسى.

ومن زوجاته: لميس بنت علي بن الحارث، وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار. ومنهن: أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله، فأمهم أم ولد.

وكان لعمر بن عبد العزيز أربعة عشر ذكراً، منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزيان وعبد الله،[1] وبنات ثلاثة: أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد عمر بن عبد العزيز وبناته، فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي.

الآراء والمواقف حوله

نظرة أهل السنة والجماعة

يرى أهل السنة والجماعة أن عمر بن عبد العزيز هو خامس الخلفاء الراشدين، وأنه مثال الحاكم العادل الزاهد الورع، ويرى بعضهم أنه هو المجدد الأول في الإسلام، قال عبد الملك الميموني: كنت عند أحمد بن حنبل، وجرى ذكر الشافعي، فرأيت أحمد يرفعه، وقال: «يُروى عن النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يقرر لها دينها»، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى».

وقال الإمام الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء": «عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي: الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد السيد، أمير المؤمنين حقاً، الخليفة الزاهد الراشد»، وقال: «وكان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين، رحمة الله عليه».

وقال ابن كثير: «فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل، فيما ذكره ابن الجوزي وغيره: إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى، وإن كان هو أولى مَن دخل في ذلك وأحق؛ لإمامته وعموم ولايته وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب، وكان كثيراً ما تشبَّه به».

نظرة الشيعة

يرى الشيعة الإثنا عشرية أن عمر بن عبد العزيز (كغيره من الخلفاء) قد تبوّأ منصب الخلافة بغير حق، إذ هو منصب مقصور على أصحابه الشرعيين من أئمة أهل البيت حسب عقيدة الشيعة الإثنا عشرية، «فالجلوس في هذا المكان بحد ذاته يعد ذنباً عظيماً وإثماً كبيراً تهون عنده الذنوب الأخرى جميعها، بل يعد اغتصاب الخلافة الشرعية من أصحابها الشرعيين أس الذنوب الذي دارت عليه رحى الكبائر والموبقات إلى يوم القيامة، إلاّ ان لعمر بن عبد العزيز بعض المواقف التي كانت موضع التقدير، وأمّا من يعتبره خليفة راشداً عادلاً فهو لا يكون إلاّ بحسب مبانيه في الخلافة التي تخالف مباني الشيعة الإمامية في الموضوع».

إلا أن بعض الشيعة يرون أن عهد عمر على قصر مدته كان متنفساً للمسلمين من اضطهاد قومه بني أمية، وأن هناك نقاط إيجابية من عصره، وأنه لما استخلف قال: «يا أيها الناس، إني قد رددت عليكم مظالمكم، وأول ما أرد منها ما كان في يدي، وقد رددت فدك على ولد رسول الله ﷺ وولد علي بن أبي طالب»، فكان أول من ردها.

وأنه ألغى مرسوم معاوية بلعن علي بن أبي طالب في صلاة الجمعة (وقد أنكر أهل السنة هذا المرسوم من أساسه)، قال اليعقوبي: «وترك لعن علي بن أبي طالب على المنبر، وكتب بذلك إلى الآفاق ... وأعطى بني هاشم الخمس، ورد فدكاً وكان معاوية أقطعها مروان فوهبها لابنه عبد العزيز فورثها عمر منه فردها على ولد فاطمة، فلم تزل في أيديهم حتى ولي يزيد بن عبد الملكفقبضها».

نظرة النصارى

يُذكر أن عمر بن عبد العزيز قد مَنع من استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين وأمورهم، فقد كتب إلى بعض عماله: «أما بعد، فإنه بلغني أن في عملك كاتباً نصرانياً يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد (يعني ذلك الكاتب) إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به ولا تتخذ أحداً على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين»، فأسلم حسان وحسن إسلامه.

كما أسقط عمر الجزية عن أهل الذمة الذين دخلوا الإسلام، وكان الخلفاء الأمويون من قبله يجبرونهم على دفعها، فقد كتب عمر إلى حيان عامله على مصر باعتماد ذلك، فكتب إليه حيان: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنه إن دام هذا الأمر (أي إسقاط الجزية عن المسلمين) في مصر أسلمت الذمة، وبطل ما يؤخذ منهم»، فأرسل إليه رسولاً وقال له: «اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطاً أدباً على قوله، وقل له: من دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزية، فوددت لو أسلموا كلهم، فإن الله بعث محمداً داعياً لا جابياً».

ولذلك قال ميخائيل السرياني في صدد عمر بن عبد العزيز: «منذ توليه الحكم، أخذ عمر يسيء إلى المسيحيّين لسببين؛ أولاً: رغبة في تعظيم الشريعة الإسلاميّة، ثانياً: لفشل المسلمين في احتلال القسطنطينيّة. وكان يشدّد الخناق على المسيحيّين ليكرههم على اعتناق الإسلام، فأصدر قراراً يقضي بإعفاء من الجزية كلّ مسيحي يعتنق الإسلام، فأسلم الكثيرون، كما قرّر عدم قبول شهادة المسيحي على المسلم وعدم تولية مسيحي في أي مجال، كما منع المسيحيين من رفع أصواتهم في الصلاة، ومن لبس الأخضر وركوب حصان مسرّج. وإذا قتل مسلم مسيحيّاً لا يُحكم بالقتل بل بدفع ديّته خمسة آلاف درهم، ومنع تقدمة النذور للأديرة والرهبنات، لا بل صادر قسماً من أملاك الكنائس والأديرة والفقراء».

إلا أن بعض الروايات عن النصارى الذين عاصروا عمر بن عبد العزيز تتناقض مع ذلك، فقد روي عن الأوزاعي أنه قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين، فمررت على راهب فقال: «يا هذا، أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل» أي عمر بن عبد العزيز، فقلت له: «نعم»، فأرخى عينيه فبكى سجاماً، فقلت له: «ما يبكيك ولست من أهل دينه؟»، فقال: «إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ».

ويُروى أن عمر بن عبد العزيز بعث وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه والبطارقة على يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له، فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها، كأنه في مصيبة، فقال: «هل تدرون لماذا دعوتكم؟»، قالوا: «لا»، قال: «إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات»، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: «ألكم تبكون أو لدينكم أو له؟»، قالوا: «نبكي لأنفسنا ولديننا وله»، قال: «لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعدعيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

الدولة الأموية في الأندلس

الدولة الأموية في الأندلس

الدولة الأموية في الأندلس إمارة إسلامية أسسها عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م في الأندلس وأجزاء من شمال أفريقيا وكانت عاصمتها قرطبة، وتحولت إلى خلافة بإعلانعبد الرحمن الناصر لدين الله نفسه في ذي الحجة ٣١٦ هـ/ يناير ٩٢٩م **خليفة قرطبة** بدلاً من لقبه السابق **أمير قرطبة**، وهو اللقب الذي حمله الأمراء الأمويون منذ أن استقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس.

تميزت الدولة الأموية في الأندلس بنشاط تجاري وثقافي وعمراني ملحوظ، حتى أصبحت قرطبة أكثر مدن العالم اتساعًا بحلول عام ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥م، كما شهدت تشييد الكثير من روائع العمارة الإسلامية في الأندلس ومنها الجامع الكبير في قرطبة. كما شهدت فترة حكم الأمويين نهضة في التعليم العام، جعلت عامة الشعب يجيدون القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه علية القوم في أوروبا لا يستطيعون ذلك.

وقد استمرت الدولة الأموية في الأندلس رسميًا حتى عام ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافة فيما بينهم، مما أدى بعد سنوات من الاقتتال، إلى تفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة..

نجح المسلمون في مدّ دولتهم إلى الأندلس، عندما عبر طارق بن زياد أحد قادة موسى بن نصير والي الأمويين على إفريقية عام ٩٢ هـ بجيش قوامه سبعة آلاف مقاتل،[٦] واستطاع هذا الجيش بعد أن أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى أن يهزم ملك القوط الغربيين رودريك في معركة وادي لكة والسيطرة في غضون عامين على

معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، تحولت جيوش المسلمين شرقًا وتوغلت في بلاد الغال حتى وصلت إلى حدود مدينة ليون الحالية.

استمرت محاولات المسلمين في التوسع في بلاد الغال في عهد الولاة السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمن الغافقي، إلا أن تلك المحاولات حققت بعض النجاحات، ثم توقفت التوسعات بعد هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء.

ظلت الأندلس منذ الفتح مجرد ولاية تابعة لولاية إفريقية إحدى ولايات للدولة الأموية في دمشق حتى سقطت الدولة الأموية على أيدي العباسيين عام ١٣٢ هـ. حرص العباسيون على ملاحقة الأمويين وتقتيلهم في كافة أرجاء دولتهم، مما جعل الأشخاص الباقون من بني أمية يتخفون أو يفرون من العباسيين. كان من بين الفارين أمير أموي يدعى بعبد الرحمن بن معاوية بن هشام فر إلى إفريقية عند أخواله من بربر نفزة.

كان الأندلس في تلك الفترة تسوده حالة من عدم الاستقرار شهدت تعاقب الولاة والصراعات بين العرب المضريةوالعرب اليمانية من جهة وبين العرب والبربر من جهة أخرى.

استغل عبد الرحمن بن معاوية الأحداث الداخلية في الأندلس، بدأ في مراسلة أتباع وموالي الأمويين في الأندلس عن طريق مولاه بدر.

نجحت المراسلات بين عبد الرحمن بن معاوية وموالي الأمويين في الأندلس في التمهيد لدخول عبد الرحمن إلى الأندلس، كما نجحوا في في استمالة بربر الأندلس واليمانيين إلى جانب عبد الرحمن الذي عبر إلى ثغر المنكب في ربيع الآخر ١٣٨ هـ.

وبعد شهور من تمكن جيش عبد الرحمن من هزيمة آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري في موقعة المصارة في ذي الحجة ١٣٨ هـ، ليدخل بذلك عبد الرحمن بن معاوية قرطبة، لتتأسس بذلك إمارته المستقلة في الأندلس.

قضى عبد الرحمن الداخل سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته، والقضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، كما عمل عبد الرحمن الداخل على تأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء، ليترك الأندلس لخلفائه من بعده ولاية مستقرة.

بعد وفاة عبد الرحمن الداخل، نجح ابنه هشام الرضا وحفيده الحكم الربضي في الحفاظ على وحدة أراضي الدولة، ونجحا في التصدي لمحاولات الممالك المسيحية في الشمال للتوسع جنوبًا. ورغم ذلك النجاح الخارجي على الصعيد العسكري، إلا أن الدولة كادت أن تسقط إثر ثورة بعض أهل قرطبة على الحكم بن هشام، إلا أنه نجح في القضاء على تلك الثورة الداخلية.

نتج عن حالة الاستقرار السياسي، أن ازدهرت حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن في الأندلس في عهد عبد الرحمن بن الحكم لتبلغ الأندلس في عهده مرحلة متقدمة من المدنية، وأصبحت مركزًا حضاريًا كبيرًا في غرب العالم الإسلامي. تطورت الدولة أيضًا عسكريًا، فنجحت في التصدي لمحاولات النورمان لغزو موانيء الأندلس بحرًا عام ٢٣٠ هـ.

كبوة الدولة

تلى تلك المرحلة مرحلة من الاضطراب في عهد محمد بن عبد الرحمن وولديه المنذر وعبد الله نتجت عن ذلك تعرض الإمارة إلى عدد من الثورات الداخلية من المولدين والمستعربين والبربر وبعض القبائل العربية، والتي نجحت في تأسيس إماراتهم شبه المستقلة التي كانت لا تخضع لسلطة الدولة إلا بالاسم بنو قسي وبنو

تجيب ومحمد بن عبد الملك الطويل وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الشمال، وأخطرهم عمر بن حفصون الذي تمرد على الدولة في الجنوب.

إضافة إلى الهجمات الخارجية من النورمان والممالك المسيحية في الشمال في محاولة استعادة الأراضي التي دخلت تحت الحكم الإسلامي.

وفي ظل حالة التمرد الداخلية والهجمات الخارجية ضعفت سلطة الدولة على أراضيها حتى انحسرت سلطة الأمير عبد الله بن محمد فقط على قرطبة وأحوازها.

عصر القوة

مع تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الحكم عام ٣٠٠ هـ، استعادت البلاد وحدتها السياسية وقوتها العسكرية وهيبتها، بعد أن خاض حروبًا طويلة استطاع من خلالها استعادة السيطرة على البلاد تحت السلطة المركزية في قرطبة. بل وامتدت سلطة الأمويين إلى أجزاء من شمال المغرب الأقصى الذي تسابق أمرائه في الدخول في ولاء الأمويين.

وأمام خطر نشأةالدولة الفاطمية في شمال إفريقية، أعلن عبد الرحمن بن محمد في عام ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م نفسه خليفة على الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله،ليقوي مركزه الديني في مواجهة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية.

ولمواجهة هذا الخطر حصّن الناصر الموانئ الجنوبية للأندلس، وضم موانئ المغرب المواجهة للأندلس في مليلة وسبتة وطنجة، إضافة إلى دعم البربر المعادين للفاطميين في المغرب ماديًا وعسكريًا، وفي الوقت نفسه، استطاع عبد الرحمن الناصر لدين الله التصدي لأطماع الممالك المسيحية في الشمال.

عرفت البلاد أوجها الثقافي في عهد ابنه الحكم الذي واصل سياسات أبيه، وكان عهده عهد ثقافة وعمران.

إلا أن الحكم المستنصر بالله أخطأ حين اختار ابنه الوحيد الطفل هشام المؤيد بالله لولاية عهده الذي استغل بعض رجال الدولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر صغر سنه وعدم قدرته على الحكم في سنه الصغيرة، وفرضوا على الخلافة وصاية أم الخليفة صبح البشكنجية، واستأثروا هم بكل السلطات. ثم انفرد محمد بن أبي عامر بكل السلطات بعد أن تخلص من كل شركائه في الحكم الواحد تلو الآخر وحجر على الخليفة الطفل، لتبقى بذلك السلطة الإسمية فقط للخليفة، والحكم الفعلي لابن أبي عامر الذي تلقب بعد ذلك بالحاجب المنصور.

استطاع الحاجب المنصور أن يؤسس دولة داخل الدولة حتى أن بعض المؤرخين سماها

الدولة العامرية. تميزت تلك الفترة بوجود تطور اجتماعي جديد بسيطرة البربر على المناصب القيادية في الجيش وكثرة عددهم واختفاء القيادة العربية من الجيوش.

استمرت سيطرة العامريين على الحكم طوال عهد الخليفة هشام المؤيد بالله، حيث خلف الحاجب المظفر أباه المنصور عام ٣٩٢ هـ في كافة سلطاته ومناصبه، ثم خلفه أخاه شنجول بعد وفاته عام ٣٩٩ هـ، الذي لم يمض شهر على توليه الحجابة، حتى أجبر الخليفة على إعلانه ولاية العهد لشنجول.

نهاية الدولة

أثار ذلك حنق الأمويين في الأندلس بعد أن رأوا في ذلك اغتصاب لحقهم في حكم الأندلس، واستطاع أحد أمرائهم يدعى بمحمد بن هشام أن يدير انقلابًا في جمادى الأولى ٣٩٩ هـ على حكم المؤيد وشنجول، ويطيح بهما من سدة الحكم، ويعلن نفسه الخليفة الجديد.

حرص المهدي بالله على التنكيل بالعامريين والبربر الذين كانوا عماد جيش الحاجب المنصور، مما دعا الفتيان العامريين إلى الفرار إلى شرق الأندلس، وتأسيس

إمارة في تلك الأرجاء، بينما التف البربر حول أمير أموي آخر يدعى بسليمان بن الحكم الذي ثار على المهدي بالله، ونجح في اقتلاعه من منصبه وإعلان نفسه خليفة في ربيع الأول ٤٠٠ هـ، لتدخل الأندلس فترة من القلاقل تصارع فيها الأمويين والبربر والحموديين على حكم الأندلس، التي استمرت حتى عام ٤٢٢ هـ حيث سقطت الدولة الأموية في الأندلس نهائيًا، وتفتت إلى دويلات صغيرة عُرفت تاريخيًا بدول الطوائف.

نظام الحكم

كان الأمير أو الخليفة يأتي على رأس النظام الحاكم في عهد الدولة الأموية في الأندلس، والذي كان يتولى الحكم وفق نظام حكم وراثي يتولى فيه ولي العهد الحكم بوصية من الأمير أو الخليفة الراحل.

لم تكن البيعة مشترطة على أن تكون للابن الأكبر حيث كان الأمراء يوصون من يرون أنه الأصلح من أبنائهم للحكم كتولية عبد الرحمن الداخل لابنه هشام متجاوزًا ابنه الأكبر سليمان، وتقديم الحكم الربضي لابنه عبد الرحمن على ابنه الأكبر هشام.

بل وكانوا أحيانًا يتجاوزونها للتوصية بولاية الحفيد كما فعل الأمير عبد الله بن محمد بالتوصية لولاية حفيده عبد الرحمن بن محمد.

كانت البيعة تتم في القصر حيث يجلس الحاكم على سرير الملك، ويدخل عليه الأمراء من بني أمية، ويستمعون لكتاب البيعة، ثم يتقدمون ببيعتهم للحاكم الجديد. يتبع أمراء بني أمية، بيعة الوزراء وأصحاب المناصب من كبار رجال الدولة، وتسمى المراسم السابقة بالبيعة الخاصة.

ثم ينيب الحاكم من يأخذ البيعة العامة من سائر الناس، ويرسل بكتاب البيعة للكور والثغور.

كانت سلطة الأمير أو الخليفة مطلقة يولّي ويعزل دون أن يعارضه معترض، ويأتي من بعد الأمير أو الخليفة في هرم السلطة «الحاجب» وهو شخص يعادل منصبه منصب

رئيس الوزراء اليوم، ويفرش له فراش أعلى من فرش الوزراء وأدنى من سرير الأمير أو الخليفة في قاعة الحكم.[٥١] إضافة إلى عدد من الوزراء، يتولون عددًا من المناصب الوزارية كمنصب كبير الخاص وأصحاب خطط الخيل والكتابة العليا والمظالم والشئون المالية والشرطة العليا والشرطة الصغرى وخطة القضاء والمواريث والحسبة.

أما إداريًا، فقد كانت الأندلس مقسمة إلى مجموعة من الكور التي تتبعها مدن لكل منها أحوازها، ويتولى إدارة تلك الكور عمال يعينهم الأمير أو الخليفة، ويتبع هؤلاء عمال المدن الذين تقع على عواتقهم مسئولية إدارة المدن وأحوازها.

العلاقات الخارجية

منذ نشأة الدولة الأموية في الأندلس وهي في حالة صراع متواصل مع جيرانها من الممالك المسيحية في الشمال والشرق من أجل فرض السيطرة أحيانًا وأحيانًا من أجل البقاء. ففي سنوات الدولة الأموية في الأندلس الأولى، تعرضت الثغر الأعليللغزو من قبل شارلمان عام ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، إلا أن أهل سرقسطة استطاعوا إفشال هجومه ثم ما لبث أن تعرض جيش شارلمان لهزيمة ساحقة أثناء انسحابه إلى فرنسا عبر ممر رونسفال.

لم يكن ذلك هو التهديد الوحيد الذي تعرضت له الأندلس في تلك الفترة، فمنذ عهد هشام الرضا تعرضت حدود الأندلس الشمالية لتحرشات من قبل مملكتي أستورياس ونافارا الوليدتين.

إضافة إلى تلك الهجمات البرية، تعرضت الأندلس للغزو البحري عام ٢٣٠ هـ من قبل للنورمانالذين احتلوا أشبونة وقادس وشذونة وإشبيلية، إلى أن هزمهم جيش أرسله عبد الرحمن الأوسط بقيادة عيسى بن شهيد ونصر الخصي، فأجلوهم عن الأندلس بعد ٤٢ يومًا من نزولهم الأندلس.

ومع دخول الأندلس عصر القوة منذ عهد عبد الرحمن الناصر وحتى عهد سيطرة الحاجب المظفر على الدولة، أصبحت اليد العليا عسكريًا في شبه الجزيرة الأيبيرية للأمويين الذين نجحوا في عهد سيطرة الحاجب المنصور في إعادة حدود الدولة الأموية إلى ما وراء نهر دويرة، وهي الأراضي التي كان الأمويون قد فقدوها في فترة كبوة الدولة التي انشغل فيها الأمراء بمواجهة الثورات الداخلية.

ورغم ذلك سرعان ما انهارت تلك السيطرة بعد أن دخلت الأندلس فترة الفتنة التي استغلتها الممالك المسيحية في الشمال للتوسع على حساب الأمويين، بل وسلّم بعضهم بعض الحصون والأراضي طواعية للأمراء المسيحيين ثمنًا لمشاركتهم إلى جانبهم في تلك المرحلة من الاقتتال الداخلي.[٦١]

أجبرت تلك الحالة من التهديد الدائم لحدود الدولة الأمويين على الاهتمام بالناحية العسكرية. فقد حرص الأمراء منذ عهد عبد الرحمن الداخل على التخلص من غلبة النظام القبلي على تركيبة الجيش الأندلسي، فحرصوا اقتناء العبيد الصقالبة والاستكثار منهم، فقد ذكر المقري أن حرس الأمير الحكم الربضي الخاص بلغ خمسة آلاف صقلبي، وقد شكلوا هؤلاء الجند الصقالبة نواة الجيش الأموي النظامي.

إلا أن هؤلاء الصقالبة مع مرور الزمن أصبح لهم قوتهم داخل البلاط وأصبحوا يتدخلون في شئون الدولة، مما دعا الحاجب المنصور حين أصبحت السلطة بيده أن يقصيهم تدريجيًا من المناصب مع استبدالهم بعناصر من البربر ويضيفهم إلى ديوان الجند النظاميين، هذا بالإضافة إلى المرتزقة والعبيد السود.استدعت تلك الحالة أيضًا الاهتمام بالتسليح، فأنشأوا قواعد بناء السفن في طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية.

واهتموا ببناء الحصون والأسوار. ونشطت الصناعات الحربية التي تُمدّ جيشه بالأسلحة حتى ذاع صيت بعض المدن كطليطلة كمراكز لصناعة الأسلحة.

شهدت فترات القوة في عهد الدولة الأموية في الأندلس حركة رواج دبلوماسي بين الأندلس وبعض جيرانها، بل وعدد من القوى العظمى في تلك الفترة التي حرصت على خطب ود حكام الأندلس في تلك الفترة. فبعد أن فشل شارلمان في غزوه لشرق الأندلس، انعقدت معاهدة سلام وصداقة بين عبد الرحمن الداخل وشارلمان.

وفي عام ٢٢٥ هـ، استقبل بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارة أرسلها الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس محملة بالهدايا، والتي ردها حين بعث سفيره يحيى الغزال بالهدايا إلى القسطنطينية للإمبراطور.

بالإضافة إلى سفارة أخرى استقبلها عبد الرحمن الأوسط من قبل هوريك الأول ملك النورمان لطلب الصلح بعد غزو النورمان لغرب الأندلس، والتي ردها عبد الرحمن أيضًا ببعثه لسفيره يحيى الغزال إلى بلاط هوريك. كما استقبل عبد الرحمن الناصر لدين الله في عهده سفارات قسطنطين السابع قيصر القسطنطينية وبطرس الأول إمبراطور بلغاريا ولويس الرابع ملك فرنسا والبابا يوحنا الثاني عشر بابا الفاتيكان وأوتو الأول إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي بادلها الناصر بسفرائه، كما استقبل الحكم المستنصر بالله سفارات صداقة من يوحنا زيمسكي قيصر بيزنطة وأوتو الثاني إمبراطور الألمان.

لم يقتصر استقبال بلاط الأمويين على سفارات المودة فقط. بل وسار بعض ملوك الجوار كتودا النافارية وابنها غارسيا سانشيز الأول ملك نافارا وحفيدها سانشو الأول ملك ليون وإلبيرا راميريز عمة الملك راميرو الثالث ملك ليون وبرمودو الثاني ملك ليونوسانشو الثاني ملك نافارا، إلى قرطبة بأنفسهم إما لطلب الصلح أو طلب معاونة الأمويين لهم في التغلب على منافسيهم على العرش.

المظاهر والحياة الاجتماعية

الدين

اتصف أهل الأندلس بالتدين والمحافظة على الشعائر الدينية إلا القليلين، وقد انتشر بينهم في البداية مذهب الأوزاعي الذي كان منتشرًا بين أهل الشام والذي دخل الأندلس وساد فيها منذ الفتح، إلى أن رحل جماعة من فقهاء الأندلس منهم زياد بن عبد الرحمن اللخمي وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب السلمي إلى المشرق، وعادوا من الشرق في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن بمذهب مالك، ونشروه حتى انتقلت الفتيا من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك في عهد الأمير الحكم بن هشام.

وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، أدخل القاسم بن محمد بن سيّار المذهب الشافعي إلى الأندلس، والذي بذل تلاميذه وأبرزهم بقي بن مخلد جهدًا لنشره،إلا أنه لم يلق قبولاً في الأندلس.

إلا أن مذهب آخر وجد سبيله إلى الأندلس أيضًا في عهد محمد بن عبد الرحمن على يد عبد الله بن قاسم القيسي، ولقى استحسان الكثير من الأندلسيين، ألا وهو المذهب الظاهريوالذي اشتهر من أئمته في الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي وابن حزم.

ومن الفرق الإسلامية الأخرى، كانت هناك محاولات في عهد عبد الرحمن الناصر لنشر المذهب الشيعي، إلا أن الأمويين قاوموا تلك المحاولات خوفًا من تغلغل نفوذ أعدائهم الفاطميين شيعيي المذهب إلى الأندلس، لذا فقد بائت تلك المحاولات بالفشل.

كما كانت هناك أيضًا محاولات لنشر مذهب المعتزلة على يد عدد من أتباعه وأبرزهم ابن مسرة، إلا أنه أيضًا لم يلق قبولاً، لميل أهل الأندلس في تلك الفترة

للمذاهب التي تعتمد على النصوص كالمالكية، لا القياس العقليكالمعتزلة. لذا ولنفس السبب، اهتم الأندلسيين بعلم الحديث، وبرز منهم عدد من المحدّثين الذين كانت لهم رحلاتهم إلى المشرق لطلب علم الحديث ونشره في الأندلس كمحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ ومحمد بن عبد الملك بن أيمن.

ولم يهمل الأندلسيين في تلك الفترة القرآن وعلومه، فنبغ منهم في علم القراءات أبو العباس الأقليشي وأبو عمرو الداني، وفي التفسير برع منهم بقي بن مخلد الذي كان له تفسيرًا للقرآن قال عنه ابن حزم: «أنه لم يُؤلف في الإسلام تفسير مثله، لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.»

أما عن المسيحيين واليهود، بمعاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد، حتى أن قضاياهم كان لهم حق الفصل بها بموافقة من السلطة الإسلامية العليا. فكان يسمح بتطبيق شرائعهم على يد قضاتهم الذين كانوا يعرفون بقضاة النصارى أو قضاة العجم، وتحت مسؤولية رئيس طائفتهم الذي كان يحمل لقب «القومس»، أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين، فكانت تعرض على القضاء الإسلامي، فكثرت كنائسهم في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى. ومن أشهر هذه كنائسهم أيام الخلافة، الكنيسة العظمى بقرطبة، ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط، ولم تهدم الكنائس في الأندلس، إلا في حالات خاصة كأن تكون الكنيسة معقلاً للثورة على السلطة، كهدم بعض الكنائس خلال ثورة ابن حفصون. كما كانت الأناجيل أيضًا شائعة يطالعها المسيحي وغير المسيحي، وقد أفاد منها ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، حيث ذكر أنه كان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم. كما ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم، فقد جرت العادة على تعيين السلطة لمن يتولى رئاستهم والذي كان يعرف بـ «الناجد» أو «الحاخام»، كما كان يتولى قضائهم بينهم شيخ اليهود

فيما يخص أمورهم الخاصة وتشريعهم، ويكون هذا الشيخ نفسه هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية، وقد تمتع اليهود، في ظل هذه الحرية، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكان المسلمين.

أتاحت تلك الحرية الفكرية لأبناء الأندلس من غير المسلمين الفرصة في التعمق في دراساتهم الدينية، فأسس حسداي بن شبروط الطبيب الخاص للخليفة عبد الرحمن الناصر مدرسة للدراسات التلمودية في قرطبة، كما وضع ابن حيوج الأسس الأولى لعلم النحو العبري.

عناصر المجتمع

كان المجتمع الأندلسي خليطًا من أجناس مختلفة امتزجت في بوتقة المجتمع الأندلسي لتتكون منها الشخصية الأندلسية المستقلة. وقد كانت عناصر المجتمع الأندلسي كالتالي :

١. **العرب**: دخل العرب إلى الأندلس في موجات متعاقبة، إلا أن أبرزها كان ما يسمى بطالعة موسى وهم الجند الغازي الذين دخل الأندلس بصحبة موسى بن نصير عام ٩٣ هـ، والذين كانوا من العرب القيسية واليمانية، والذين انتشروا في الأندلس فسكنت القيسية في نواحي الجنوب، وتوزعت اليمانية بين المناطق الشمالية والشمالية الغربية. كان أبرز الهجرات العربية التالية طالعة بلج بن بشر القشيري، وهم الجند الذين بعثهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى المغرب للقضاء على ثورة البربر هناك، ثم استعان بهم عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس عام ١٢٢ هـ للقضاء على ثورة البربر في شمال الأندلس، واستقروا بها، والذين كان معظمهم من القيسيين، ودخلوا بعد فترة وجيزة في صراع مع عبد الملك بن قطن واليمانية، وخلعوه وسيطروا على قرطبة، إلى أن وزعهم أبو الخطار الكلبي على كور الأندلس، فأسكنهم جيان وباجة وأكشونبة وبعض نواحي تدمير وشذونة

والجزيرة وإشبيلية ولبلة ورية وإلبيرة. غلبت النزعة القبلية على عرب الأندلس، وشكلوا النواة الارستقراطية والبرجوازية بالمدن، فتقلدوا مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرطة والحسبة وبيت المال وضرب السكة. أما عامتهم فقد احترفوا الزراعة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما، وبيع العطر والشمع والفاكهة والخضر والخبز.

٢. **البربر**: كان البربر يمثلون معظم الجيش الفاتح للأندلس مع طارق بن زياد. ونظرًا لقرب مساكنهم من الأندلس، توالت هجراتهم إليها أن علموا بنجاح الفتح، وخاصة من قبائل زناتة. وبعد أن انتهج العامريون سياسة تقريب البربر والاعتماد عليهم كعماد للجيش بدلاً من العرب والصقالبة، هاجرت جموع كبيرة من البربر إلى الأندلس خاصة من بطون صنهاجة، ولعبوا دورًا كبيرًا في فترة الفتنة. اختار البربر النزول في المناطق الجبلية في الأندلس في الجنوب والوسط والغرب لتقاربها مع طبيعة بلادهم. وقد امتهن من سكن المدن منهم الحرف اليدوية والصيد والسقاية والبناء، فيما امتهن سكان البوادي جلب البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والفحم والخشب، وبيعها في المدن.

٣. **الموالي والصقالبة**: لعب الموالي دورًا كبيرً في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس بما قدموه من دعم لعبد الرحمن الداخل عند دخوله الأندلس. أصبح تأثير الموالي مؤثرًا منذ أن دخل ألفان مولى من أصل عشرة آلاف رجل إلى الأندلس في طالعة بلج. وقد اعتمد عليهم الأمويون في بداية دولتهم في الأندلس، وظلت أسر منهم تستأثر بالمناصب لدى الأمراء والخلفاء كبني جهور وبني أبي عبدة. أما الصقالبة فهم الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود من أسرى حروب الجرمان مع الصقالبة، وباعوهم في الأندلس. وكثر عدد الصقالبة أيام الخلافة، حيث كانوا يستخدمون كخدم وجنود، وصار لهم تأثير كبير، خصوصًا وأنهم كانوا

في خدمة أصحاب القرار، وقادة للجيوش، وكانت لهم مؤامراتهم داخل القصور كمحاولة فائق وجؤذر كبيرا صقالبة قصر الخلافة بعد وفاة الحكم المستنصر بالله لتنحية وليّ عهده هشام المؤيد بالله، وتولية أخيه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله التي نجح الحاجبجعفر المصحفي بمعاونة محمد بن أبي عامر في إفشالهم، واستخدموا أحيانًا في قمع الثوارت كثورة أهل الربض في عهد الحكم الربضي. وإلى جانب الخدمة في القصور، اشتغل الموالي والصقالبة في الحياكة والنسيج وسبك الحديد وصنع آلات الحرب والصباغة والنجارة، وتجارة النعال والجلاليب واللحم وضرب الطبول والقيام بالمساجد والأذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلاً وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد إلى بلد.

٤. **المستعربون:** هم المسيحيون الذين بقوا على دينهم بعد فتح الأندلس، وعاشوا في كنف دولة المسلمين. كان المسلمون يسمونهم بعجم الأندلس، إلا أنه ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أطلق عليهم لقب المستعربون وهو لقب استخدمه مسيحيو الممالك الشمالية لتمييز هؤلاء المسيحيين الذين تأثروا بالمسلمين ثقافةً ولغةً وأسلوب حياة، فكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة ورجال دين خاصون بهم، بل وكانوا يستخدمون لغة خاصة بهم، ظلت تستخدم كلغة منطوقة حتى القرن الرابع عشر. وخلال فترة الحكم الأموي، استخدمهم الأمويون في إدارة بعض شئون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة. أما عوامهم فقد امتهنوا الزراعة وتربية الماشية وقطع الأخشاب وصناعة الفحم وصيد الأسماك وصناعة السفن وآلاتها.

٥. **المولدون:** هم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام وأبناء العرب والبربر من أمهات إسبانيات. لم يكن هناك فرق بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين في الأصل. بل وبرزت منهم بيوتات كانت لها مكانتها السياسية

كبني قسي وبنو الطويل في الثغر الأعلى، وكان منهم العلماء كابن القوطية. إلا أن قطاعًا منهم كانت لهم نزعاتهم العصبية ضد العرب، وكانوا يثورون على سلطة الدولة في فترات ضعفها كابن حفصون وابن مروان الجليقي. وقد امتهنت تلك الطائفة الزراعة والتجارة، واستخدمهم الأمويون في بعض المناصب الإدارية.

٦. **اليهود:** عاش اليهود في العديد من المدن كقرطبة وإشبيلية ولسيانة وغرناطة وطليطلة وقلعة حماد وسرقسطة وطركونة وطرطوشة. وامتهنوا الخياطة والصباغة والحجامة والدلالة في الأسواق وصناعة الصابون وتجارة الحلي والأصواف والكتان وآلات الطرب، وتجارة العبيد والحرير والتوابل.

لم يقتصر اهتمام الأندلسيين على العلوم الدينية فقط، فاهتموا بالعديد من ألوان الأدب كالشعر والنثر وعلوم اللغة والتأريخ وكتب السير والتراجم، وقد برزت أسماء كثيرة في تلك الفنون في عهد الدولة الأموية في الأندلس. ففي فن الكتابة الأدبية، لمع ابن عبد ربه وكتابه «العقد الفريد» الذي كان بمثابة موسوعة ثقافية تبين أحوال الحضارة الإسلامية في عصره، وتناول فيه السياسة وفنون الحرب والنوادر وفضائل العرب والخطب والحديث واللغة والتاريخ والشعر وطبائع البشر وألوان الملابس والطعام. وبرز أيضًا ابن شهيد صاحب «رسالة التوابع والزوابع» ذات الإطار الخيالي الخصب.

وفي فن الخطابة ذي التأثير الديني والسياسي، برع المنذر بن سعيد البلوطي الذي كانت لخطبته التي ارتجلها أمام سفارة قيصر بيزنطة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٦ هـ، أثرها في ظهوره على الساحة الأندلسية كفقيه وخطيب مفوّه.

وفي علوم اللغة والنحو، بعد أن دخل جودي بن عثمان المروري بكتب الكسائي، اهتم الأندلسيون بعلم النحو، كما كان لانتقال أبي علي القالي من العراق للأندلس دوره في ذيوع علوم اللغة وأشعار الشرق في الأندلس. وقد ألف الأندلسيون

كتبًا في علوم اللغة، بل وخاضوا في مواضيع لم يسبقهم إليها أحد ككتاب «تصاريف الأفعال» لابن القوطية وهو أول كتاب يتناول الأفعال الثلاثية والرباعية.

أما الشعر، فقد كان أثر الشرق واضحًا فيه حيث تأثر شعر الأندلس بشعراء الشرق، فظهر أثر شعراء الزهد كأبي العتاهية على أشعار ابن أبي زمنين وابن عبد ربه وأبي بكر الزبيديوغيرهم، وشعراء الغزل والمديح والفخر والحماسة كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وابن المعتز، والذين ظهر أثرهم جليًا في شعر يحيى الغزال وابن دراج القسطلي وابن هانئ. وظل الشعر الأندلسي بلا إبداع محاكيًا لشعر الشرق وغير مصقول، فقيرًا من الناحية الذهنية التفكيرية، مكبلاً بقيود الجوانب الشكلية الجامدة. ولم تسبق الأندلس الشرق في ألوان الأدب إلا في فن **الموشحات** الذي ابتكره مقدم بن معافى القبري، والذي أصبح بحلول القرن الرابع الهجري أشهر أشكال الأدب في الأندلس، كما أنها تعتبر فن أندلسي خالص. ويعد ابن عبد ربه وعبادة بن ماء السماء ويوسف بن هارون الرمادي أشهر وشاحو عصر الدولة الأموية في الأندلس.

كان للأندلسيين أيضًا اسهاماتهم التأريخية التي اهتمت بالتأريخ للأندلس منذ الفتح، والتي تطورت من النقل التاريخي الذي يفيض فيه اللون الأسطوري كتاريخ عيسى بن أحمد الرازي وتاريخ عبد الملك بن حبيب السلمي، إلى أن انتقل إلى الإحكام والدقة ككتابي «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية و«تقويم قرطبة» لعريب بن سعيد القرطبي. وقد اهتم الأندلسيون أيضًا بتدوين السير والتراجم التي تناولت تصنيفات مختلفة للتراجم ككتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي وكتاب «قضاة قرطبة» لمحمد بن الحارث الخشني.

لم يكن الأمراء والخلفاء بعيدين عن هذا الجو الأدبي، فقد اهتم الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان شغوفًا بجمع الكتب بنقل الثقافة من المشرق إلى قرطبة، فأرسل شاعره ووزيره عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق، للبحث عن الكتب القيمة

واستنساخها، وهي النواة التي تكونت منها بعد ذلك منها مكتبة قرطبة، وهي الهواية التي شاركه فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله الذي وصل عدد الكتب في مكتبته إلى ٤٠٠٫٠٠٠ كتاب، بل واهتم الحكم أيضًا باستجلاب العلماء ورواةالحديث من الأقطار، وكان يحضر مجالسهم ويروي عنهم. لم يقتصر دور أمويي الأندلس على رعاية الأدب، بل وأدلى أفراد منهم بدلائهم في هذا الفن، فكان منهم الشعراء كيعقوب وبشر ابني الأمير عبد الرحمن بن الحكم[١١٤] وأبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالطليق، الذي قال عنه ابن حزم: «أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحة شعر وحُسن تشبيه.» واللغويين كالمنذر بن عبد الرحمن وهو من نسل المنذر بن عبد الرحمن الداخل الذي وصفه ابن حزم بأنه كان إمامًا في علم النحو، وعبد العزيز بن الحكم بن أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي كان عالمًا بالنحو وغريب اللغة. والمؤرخين كمعاوية بن هشام بن محمد المعروف بابن الشبانسي الذي كان له كتابين أحدهما في نسب العلويين والآخر في أخبار الدولة الأموية في الأندلس، وعبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان له كتاب «العليل والقتيل في أخبار ولد العباس».

العمارة

اهتم الأمويون بالعمارة في الأندلس، فبنوا القصبات والحصون والأسوار والأبواب وأسسوا المدن، كما اهتموا ببناء المساجد والقصور والحمامات والقباب والقناطر المائية التي زينوها بالزخارف والنقوش. استفاد الأندلسيون مما حملوه معهم من فن العمارة الإسلامية من الشرق، ومزجوه مع ما وجدوه في الأندلس من عمارة رومانية وقوطية، فأنتجوا خليطًا متميزًا ميّز فن العمارة الأندلسي، وجعله فنًا مستقلاً له خصائصه الخاصة التي تميزه. ورغم مرور نحو ألف عام منذ سقوط الدولة الأموية في الأندلس،

إلا أنه ما زالت هناك العديد من الآثار الخالدة التي تشهد على عظمة فن العمارة الأندلسي في عصر الدولة الأموية في الأندلس.

يعد الجامع الكبير في قرطبة دُرّة العمارة الدينية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فما زال خالدًا ليشهد على عظمة الفن الأندلسي في تلك الفترة. أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م محل كنيسة قوطية، وأراده عبد الرحمن الداخل أن يكون أعظم مساجد الأندلس وأفخمها. أنفق الداخل ٨٠ ألف دينار على بنائه، واشترى أرضًا من مسيحيي قرطبة بمائة ألف دينار ليضمها إلى الجامع، إلا أنه مات قبل أن يكتمل بنائه، الذي اكتمل في عهد ابنه هشام الرضا. تمت توسعة الجامع عدة مرات أولاها في عهد عبد الرحمن الأوسط التي أتمها ابنه محمد بن عبد الرحمن. كما قام الأمير المنذر بن محمد بترميم ما وهي من بنائه، وأضاف الحكم المستنصر بالله إليه زيادة لما ضاق المسجد بأهل قرطبة في عهده، وكذلك فعل محمد بن أبي عامر،[1] حتى بلغ عدد سواريه ١٤١٧ سارية وثرياه ٢٨٠ ثُريّة وأبوابه ٢١ بابًا. وبلغ طوله ١٨٠ م وعرضه ١٣٥ م بارتفاع ١٢ م.

استوحي بناء الجامع من تصميم الجامع الأموي في دمشق، وكان يربطه بقصر الخلافة ممرًا مسقوفًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة بعيدًا عن أعين العامة.[1] وقد أضيف الجامع إلى مواقع التراث العالمي عام ١٩٨٤.[1]

ومن آثار العمارة الدينية أيضًا، مسجد إشبيلية الذي بني في عهد عبد الرحمن بن الحكم عام ٢١٤ هـ/ ٨٣٠م، الذي تعرض لبعض الأضرار نتيجة غزو النورمان لإشبيلية عام ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م، كما تأثر بزلزال عام ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م، إلا أنه وبعد سقوط المدينة في يد الإسبان عام ١٢٤٦ م، تم تحويله إلى كنيسة، وفي عام ١٦٧١ م تم هدمه وبناء كنيسة جديدة في مكانه، ولم يبق منه إلا أجزاء من صحن المسجد ومئذنته، وباب المسجد الرئيسي الذي يبلغ طوله ١٠ أمتار وعرضه ٥ أمتار، ويعرف الآن بباب الغفران

(بالإسبانية: Puerta del Perdón). ومن الآثار المعمارية الباقية أيضًا مسجد باب المردوم بطليطلة الذي بناه قاضي طليطلة أحمد بن حديدي عام ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩م، وقد تحول المسجد أيضًا إلى كنيسة «Cristo de la Luz» بعد أن استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على المدينة عام ١٠٨٥م. وأجزاء من المسجد الجامع في مدينة الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٣٢٩ هـ/ ٩٤١م، والذي لا تزال أطلاله باقية إلى الآن.

وكما اهتم الأمويون بالعمارة الدينية، اهتموا أيضًا بالعمارة المدنية، فقد اعتنوا ببناء القصور كقصور الخلافة والرصافة والمؤنس في قرطبة، وشيّدوا المدن لتكون مراكز للحكم والإدارة كالزهراء التي أسسها عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م والزاهرة التي بناها محمد بن أبي عامر عام ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م[1] ومرسية التي بناها عبد الرحمن بن الحكم، لتكون قاعدة لكورة تدمير. بلغت الزهراء التي كانت مقرًا لحكم الأمويين لأربعين عامًا في عهدي عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بالله شأوًا عظيمًا، فضمت الزهراء قاعات احتفال ومساجد ودور حكومية وحدائق ودار لسك العملة وورش للعمال، وثكنات ومساكن للجند وحمامات، كما تم إمدادها بالمياه عبر قنوات. وقد امتد العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة حتى اتصلت، فكان يُمشى فيها لعشرة أميال على ضوء السُرُج.

الموسيقى

كان فن الغناء في الأندلس في بداية عهد الدولة الأموية محصورًا في لونين، إما على نسق الغناء الشعبي الذي كان منتشرًا قبل الفتح الإسلامي، وإما على نهج الحداء العربي الذي نقله العرب الداخلون إلى الأندلس معهم. إلا أنه وبعد دخول المغنيين المشرقيين بألوان الغناء التي كانت منتشرة في العراق والحجاز، كزرقون وعلون في عهد الحكم الربضي وزرياب في عهد عبد الرحمن الأوسط وهو الأمير الذي كان مولعًا بالغناء،

حتى أنه كان يبعث إلى المشرق من يشترى له الجواري الذين اشتهرن بالغناء، بل وخصص لهن مكانًا في قصره عُرف بدار المدنيات، فانتشرت بذلك المغاني في الأندلس.

نجح زرياب في توظيف فنه ليتواءم مع الأشعار والموشحات والأزجال الأندلسية، كما كان لإدخاله وترًا خامسًا على العود، دوره في نشأة الغيتار الإسباني. كما لعبت موسيقى الأندلس دورًا في نقل الآلات الموسيقية الشرقية للغرب، كالكمان الذي تطور من الربابة، ويظهر ذلك من المصطلحات الموسيقية ذات أصول عربية التي اكتسبتها الموسيقى الغربية، ككلمات «adufe» من الدف، «alboka» من البوق، «anafil» من النفير، «atabal» من الطبل، «atambal» من الطنبل.

العلوم

كان اهتمام الأندلسيين بالفلسفة في عهد الدولة الأموية في الأندلس ضعيفًا، لما كانوا عليه من ميل ديني للمذاهب الفقهية التي تعتمد على النصوص، بل وكانوا يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة. ورغم هذا الجو القاتل لهذا العلم، إلا أنه ظهر في هذا العهد واحدًا من الفلاسفة اللامعين وهو ابن مسرة، الذي رحل إلى المشرق واختلط بالمشتغلين من الفلاسفة في الشرق وتأثر بهم، وعاد إلى الأندلس ناشرًا فكره، لكنه لم يسلم من اتهام الفقهاء له ولأتباعه بالزندقة، مما دفع الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله لملاحقة أتباعه للقضاء على مذهبه. ورغم ذلك، لم يمنع هذا التضييق على الفلسفة والفلاسفة الخليفة الحكم المستنصر بالله الشغوف باقتناء الكتب على أن يجمع عددًا من كتب الفلسفة في مكتبته. التي ما أن استقر الأمر للحاجب المنصور استخرجها وأحرق بعضها وأتلف البعض ليكتسب بذلك تقدير العلماء والعامة من المتدينين.

أما الطب فكان أكثر العلوم المدنية التي أولاها الأندلسيون اهتمامهم، فاشتغلوا أولاً بدراسة الكتب القديمة ككتاب ديسقوريدس الذي تداول منه الأندلسيون نسخًا بترجمة

اصطفن بن بسيل المشرقية، ثم أهديت منه نسخة باليونانية للخليفة الناصر، فأعيد ترجمتها في قرطبة، وتم تعريب ما صعب على المشرقيين ترجمته من أسماء النباتات التي ورد ذكرها باسمها اليوناني في ترجمة ابن بسيل. ولم يتوقف الأندلسيون عند ذلك، بل وكانت لهم تعليقاتهم على تلك الكتب القديمة كتعليقات ابن جلجل على كتب ديسقوريدس، وتعليقات الزهراوي على كتب القدماء ومعارضاته لبعض آرائهم.

وقد تجاوزت شهرة الأطباء الأندلسيون الحدود في زمنهم، فكانت الملوك تفد إلى قرطبة لتستطبّ على يدي أطباء الأندلس. لم تقتصر تلك شهرة أطباء الأندلس على زمانهم فقط، فقد ظل كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي الملقّب بأبو الجراحة الحديثة[1] الذي ضم وصف ورسوم لمائتي جهاز جراحي اخترعهم الزهراوي، يستخدم كمرجع أساسي في الجراحة في أوروبا العصور الوسطى، كما ترجم ألبيرتوس ماغنوس بعض أعمال ابن جلجل إلى الغرب.

وفي علمي الرياضيات والفلك، درس الأندلسيون علم الفلك ونبغ منهم في هذا المجال أيضًا مسلمة المجريطي الذي اهتم بدراسة كتب بطليموس وحسّن ترجمة المجسطي، وطوّر جداول الخوارزمي الفلكية، وقدّم تقنيات في علمي المساحة والتثليث، إضافة إلى تلميذيه ابن السمح القرطبي وابن الصفار اللذان ألف كل منها زيجًا فلكيًا. أما الكيمياء، فقد خرج بها الأندلسيون من دائرة الخيمياء إلى الكيمياء العلم الذي يقوم على المراقبة والتجريب. ولعل أبرز انجازاتهم في مجال الكيمياء استنباط عباس بن فرناس الذي اشتهر بمحاولته للطيران. والذي استنبط طريقة لكيفية صناعة الزجاج من الأحجار عن طريق معالجتها كيميائيًا، والمجريطي الذي أجرى التجارب على أكسيد الزئبق الثنائي، ونجح في فصل الذهب عن الفضة.

النشاط الاقتصادي

تنوع النشاط الاقتصادي في الأندلس في عهد الدولة الأموية في الأندلس بين زراعة وصناعة وتجارة. فقد اهتم المسلمون في عهد الدولة الأموية في الأندلس بالزراعة،

فأصلحوا وسائل الري ونظّموها، وبنوا السدود وشقوا القنوات، وأقاموا الجسور والقناطر، واستغلوا مياه المتساقطة من الجبال، وحفروا لها أحواض لتجميعها، واستخدموا بعد ذلك السواقي التي كانت تتراوح أقطارها بين ٢٠-٣٠م لرفع الماء منها. واستخدموا الثيران في تقليب الأرض وإعدادها للزراعة. وبرعوا أيضًا في تنسيق الحدائق، وأدخلوا إلى أوروبا نباتات لم تكن معروفة لدى الأوروبيين كالأرز وقصب السكر والزيتون والمشمش والقطن والفستق. وإلى جانب تلك النباتات زرعوا العنب والتين والرمان واللوز والجوز والبندق والصنوبروالكمثرى والدراق والسفرجل والتوت والتفاح والنخيل والكتان والقمح والشعير.

وفي النشاط الصناعي، عرفت الأندلس في تلك الفترة الصناعات الغذائية كتجفيف الحبوب والفواكه وصناعة النبيذ ومعاصر الزيتون. وصناعة المنسوجات والصباغة والصناعات المعدنية والزجاج والفخار المُذهب والفسيفساء، والدباغة. والسجاد والسكر والورق والتحف المعدنية اشتهرت الأندلس أيضًا بصناعة الملابس من الكتان والحرير والتي كانت تصل إلى مصر ومكة واليمن. كما استخرج الأندلسيون الحديد والذهب والفضة والرصاص والزئبق، كما استخدموا الرخام بألوانه المتعددة.

أما التجارة، فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية في الأندلس لسيطرتهم على الحوض الغربي للبحر المتوسط، فكانت موانئ الأندلس تعج بالنشاط والحركة، وقد ذكر ابن حوقل أن بعض المنتجات الأندلسية كالملابس المطرزة والأصواف والأصبغ والحرير والورق والملابس الكتانية والتين المجفف والخزف المُذهب والأسلحة، كانت تصدر إلى مصر وخراسان وغيرها. كما كان للدينار القرطبي قوته الاقتصادية في كل الأندلس وبعض بلدان أوروبا منذ أمر عبد الرحمن الداخل بسكّه، فكانت المبادلات التجارية تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه شارلمان.

بل ظلت الممالك المسيحية في الشمال تتعامل بالنقود العربية والفرنسية لفترة طويلة من الزمن.

تنوعت مصادر دخل الدولة الأموية في الأندلس من الزراعة والصناعة والتجارة والموارد الطبيعية، إضافة إلى ما كانت تفرضه الدولة من خراج على الأراضي وجزية على الذميين وغنائم الحروب والضرائب المفروضة والرسوم المفروضة على البضائع التي تمر على موانئ الأندلس.

وقد بلغت الدولة ذروة نشاطها الاقتصادي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث يلغت جباية الأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، ومن ضريبة الأسواق سبعمائة وخمس وستين ألف دينار، بالإضافة إلى ما كان يدخل خزائن الدولة من أخماس الأغنام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم والسنة النبوية

١. الوجيز في الخلافة الراشدة ٢٠٠٦ p. 66-76 ,

٢. الوجيز في الخلافة الراشدة ٢٠٠٦ p. 72-74 ,

٣. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 121 ,

٤. مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. مفكرة الإسلام. تاريخ الولوج: ٠١-٠٤-٢٠١٢.

٥. كتاب «مقتل علي بن أبي طالب والحسين»، لابن تيميَّة.

٦. الكامل في التاريخ – المجلد الثاني ١٩٧٩ p. 387-394 ,

٧. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، ص٩. دار سفير، سنة ١٩٩٦.

٨. الوجيز في الخلافة الراشدة ٢٠٠٦ p. 84-86 ,

٩. الكامل في التاريخ – المجلد الثاني ١٩٧٩ p. 402-405 ,

١٠. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب محمد الخضري بك ١٩٦٩ p. 100 ,

١١. الوجيز في الخلافة الراشدة ٢٠٠٦ p. 89 ,

١٢. الدروس المستفادة من فتوحات معاوية (الجزء الأول(.لعلي محمد الصلابي، موقع هدى الإسلام. تاريخ النشر: ٠٥-١٠-٢٠٠٨. تاريخ الولوج: ٠١-٠٤-٢٠١٢.

١٣. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 100-101 ,

١٤. الحروب الصليبية في المشرق ١٩٨٤ p. 30-31 ,

١٥. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 100 ,

١٦. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ث ث الفتوحات والعلاقات في عهد معاوية .لعلي محمد الصلابي، موقع هدي الإسلام. تاريخ النشر: ٠٥-١٠-٢٠٠٨. تاريخ الولوج: ٠١-٠٤-٢٠١٢.

١٧. الكامل في التاريخ – المجلد الثاني ١٩٧٩ p. 458-459 ,

١٨. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 102 ,

١٩. فتح جزيرة رودس.. قاعدة مهمة لليحرية الإسلامية .لراغب السرجاني، موقع قصة الإسلام. تاريخ النشر: ٢٨-٠٧-٢٠١٠. تاريخ الولوج: ٠١-٠٤-٢٠١٢.

٢٠. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب الكامل في التاريخ – المجلد الثاني ١٩٧٩ p. 497 ,

٢١. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 16-17 ,

٢٢. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 109 ,

٢٣. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ث ث ج ح خ د ذ ر ز س ش خلافة بني أمية من إهم السلالات الإسلامية التي حكمت مابين ٦٦١ الي ٧٥٠. لـ«سعاد العمري». تاريخ الولوج: ٠٢-٠٤-٢٠١٢.

٢٤. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥-140 p. 138- ,

٢٥. ديوان البريد والاتصالات في الحضارة الإسلامية .لراغب السرجاني، موقع قصة الإسلام. تاريخ النشر: ١٦-٠٥-٢٠١٠. تاريخ الولوج: ٠٢-٠٤-٢٠١٢.

٢٦. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 20-212 ,

٢٧. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 119-122 ,

٢٨. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٠-١١.

٢٩. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 105-106 ,

٣٠. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. , 23-24

٣١. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 107 ,

٣٢. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 108 ,

٣٣. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 24 ,

٣٤. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 166-167 ,

٣٥. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. , 24-27

٣٦. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 134 ,

٣٧. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 132 ,

٣٨. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 48-91 ,

٣٩. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٧٢٠٠٦ .p , .

٤٠. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥١٦٥ .p , .

٤١. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥١٧٤-173 .p , .

٤٢. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥١٧٥١ .p , .

٤٣. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥١٧٧١ .p , .

٤٤. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١١.

٤٥. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٢-١٣.

٤٦. " شبيب الخارجي". الموسوعة العربية الميسرة. موسوعة شبكة المعرفة الريفية. ١٩٦٥. اطلع عليه بتاريخ ١٢ كانون الأول ٢٠١١.

٤٧. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢٢١٠-207 .p , .

٤٨. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٣٦.

٤٩. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٢٧.

٥٠. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢٢٠٣ .p , .

٥١. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢٢٠٤ .p , .

٥٢. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 369 ,

٥٣. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 205 ,

٥٤. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 363 ,

٥٥. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 202 ,

٥٦. الحروب الصليبية في المشرق ١٩٨٤ p. 32 ,

٥٧. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 205-206 ,

٥٨. ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الدولة الأموية. موقع هدي الإسلام. تاريخ النشر: ٠٣-١١-٢٠١١. تاريخ الولوج: ٠٤-٠٤-٢٠١٢.

٥٩. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٤٢-٤٣.

٦٠. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 220-221 ,

٦١. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 220-226 ,

٦٢. تعدى إلى الأعلى ل:ا ـ قبة الصخرة ليست المسجد الأقصى وعمر بن الخطاب رفض الصلاة في اتجاهها. تاريخ الولوج: ٠٥-٠٤-٢٠١٢.

٦٣. قبة الصخرة المشرفة وأهميتها في العمارة الإسلامية. المركز الفلسطيني للإعلام. تاريخ الولوج: ٠٥-٠٤-٢٠١٢.

٦٤. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٤.

٦٥. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 221 ,

٦٦. فتوحات العرب للمغرب العربي. تاريخ الولوج: ٠٤-٠٤-٢٠١٢.

٦٧. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 432 ,

٦٨. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب موسى بن نصير: شيخ المجاهدين وفاتح الأندلس. لحازم ناظم فاضل، رابطة أدباء الشام. تاريخ الولوج: ٠٤-٠٤-٢٠١٢.

٦٩. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 561 ,

٧٠. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 44-452 ,

٧١. فتوحات طارق بن زياد. تاريخ الولوج: ٠٤-٠٤-٢٠١٢.

٧٢. الوليد بن عبد الملك ووقف فتوحات الأندلس .لراغب السرجاني، موقع قصة الإسلام. تاريخ النشر: ٢٩-٠٣-٢٠١١. تاريخ الولوج: ٠٤-٠٤-٢٠١٢.

٧٣. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 221-222 ,

٧٤. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 222 ,

٧٥. الكامل في التاريخ – المجلد الثالث ١٩٧٩ p. 567-568 ,

٧٦. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 472 ,

٧٧. كتاب «قتيبة بن مسلم الباهلي» (الجزء ٥ من «سلسلة فرسان الإسلام») لـ«خالد محمد خلاوي». ص١١-١٢. الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١، من مكتبة العبيكان)الرياض، السعودية.(

٧٨. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت ث التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ , p. 226-227

٧٩. كتاب «قتيبة بن مسلم الباهلي»، مرجع سابق، ص١٣-١٧.

٨٠. كتاب «قتيبة بن مسلم الباهلي»، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

٨١. كتاب «قتيبة بن مسلم الباهلي»، مرجع سابق، ص٢٣-٣٠.

٨٢. كتاب «محمد بن القاسم» (الجزء ٦ من «سلسلة فرسان الإسلام») لـ«خالد محمد خلاوي». ص١٨-٢٣. الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١، من مكتبة العبيكان)الرياض، السعودية.(

٨٣. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ .p , 228

٨٤. كتاب «محمد بن القاسم»، مرجع سابق، ص٢٤-٢٥

٨٥. كتاب البداية والنهاية، لابن كثير، الجزء التاسع، فصل «بناء الجامع الأموي.«

٨٦. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← المسجد: المسجد الأموي. موسوعة المساجد في العالم. تاريخ الولوج: ٠٥-٠٤-٢٠١٢.

٨٧. الجامع الأموي في دمشق. موقع اكتشف سورية. تاريخ الولوج: ٠٥-٠٤-٢٠١٢.

٨٨. كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور، تأليف: محمود سعيد ممدوح، ص٩٦.

٨٩. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٥.

٩٠. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 29-30 ,

٩١. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 27-28 ,

٩٢. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 37-41 ,

٩٣. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← ٥ كتاب »سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد«، لابن الجوزي.

٩٤. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 56-58 ,

٩٥. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٦-١٧.

٩٦. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 64 ,

٩٧. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 65 ,

٩٨. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 244 ,

٩٩. الكامل في التاريخ – المجلد الرابع ١٩٧٩ p. 62 ,

١٠٠. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 248-249 ,

١٠١. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 250 ,

١٠٢. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 255-256 ,

١٠٣. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 59-60 ,

١٠٤. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 261 ,

١٠٥. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٤٣-٤٤.

١٠٦. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٨.

١٠٧. التاريخ الإسلامي – ٤ –: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 273-277 ,

١٠٨. مقارنة بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية. تاريخ الولوج: ٠٧-٠٤-٢٠١٢.

١٠٩. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت الحروب الصليبية في المشرق ١٩٨٤ p. 341 ,

١١٠. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 274 ,

١١١. الحروب الصليبية في المشرق ١٩٨٤ p. 351 ,

١١٢. التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 273 ,

١١٣. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 276 ,

١١٤. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب التاريخ الإسلامي - ٤ -: العهد الأموي ١٩٨٢ p. 277 ,

١١٥. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٤٠.

١١٦. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 62-63 ,

١١٧. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.

١١٨. الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 64-67 ,

١١٩. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 301-302 ,

١٢٠. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 302-303 ,

١٢١. تعدى إلى الأعلى ل:ا ب ت موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٩.

١٢٢. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 302 ,

١٢٣. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 303 ,

١٢٤. تعدى إلى الأعلى ل:١ ب ٥ الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 304 ,

١٢٥. تعدى إلى الأعلى ل:١ ب موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٢٠.

١٢٦. تعدى إلى الأعلى ل:١ ب الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. , 66-67

١٢٧. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 305-306 ,

١٢٨. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص١٩-٢١.

١٢٩. تعدى إلى الأعلى ل:١ ب الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 308-309 ,

١٣٠. الدولة الأموية: والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ١٩٨٥ p. 309 ,

١٣١. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

١٣٢. تعدى إلى الأعلى ل:١ ب الدولة الأموية: من الميلاد إلى السقوط ٢٠٠٦ p. 68 ,

١٣٣. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← كتاب »سير أعلام النبلاء «للذهبي، فصل «مروان بن محمد.«

١٣٤. السرجاني، راغب" .قصة الإسلام". عهد الولاة - قصة الأندلس. اطلع عليه بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠١١.

١٣٥. السرجاني، راغب" .قصة الإسلام". عبد الرحمن الداخل صقر قريش - قصة الأندلس. اطلع عليه بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠١١.

١٣٦. دولة الأمويين في الأندلس. تاريخ الولوج: ٠٩-٠٤-٢٠١٢.

١٣٧. تاريخ الدولة الأندلسية. تاريخ الولوج: ٠٩-٠٤-٢٠١٢.

١٣٨. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٧٣.

١٣٩. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٧٨-٧٩.

١٤٠. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٨٠.

١٤١. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٨١.

١٤٢. الملابس في العصر الأموي. موقع رحلات المسالك. تاريخ الولوج: ١٩-٠٥-٢٠١٢.

١٤٣. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← تشريعات الملابس في العصر الأموي. موقع رحلات المسالك. تاريخ الولوج: ١٩-٠٥-٢٠١٢.

١٤٤. د. سامية إبراهيم لطفي السمان ود. عزة إبراهيم علي، »تاريخ وتطور الملابس عبر العصور«، الإسكندرية:جامعة الإسكندرية، 1992، ص ٨٤-٨٥.

١٤٥. الملابس المطرزة والفاخرة عند الأمويين. موقع رحلات المسالك. تاريخ الولوج: ١٩-٠٥-٢٠١٢.

١٤٦. العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية. لعمر كوش. تاريخ النسر: ٢٦-٠٣-٢٠١٢. تاريخ الولوج: ١٠-٠٤-٢٠١٢.

١٤٧. تعدى إلى الأعلى ل:[1] ندوة علمية تبرز دور المسلمين في تقدم العلم والتكنولوجيا. تاريخ النسر: ٠٧-٠٧-٢٠٠٧. تاريخ الولوج: ١٠-٠٤-٢٠١٢.

١٤٨. الحركة العلمية في العصر الأموي في المشرق الإسلامي. لعبد الرحمن أحمد حفظ الدين المصنف. المركز الوطني للمعلومات، الجمهورية اليمنية. تاريخ الولوج: ١٠-٠٤-٢٠١٢.

١٤٩. تعدى إلى الأعلى ل:[1] فجر الإسلام: يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية ١٩٦٩-1581 .p. 156-

١٥٠. تعدى إلى الأعلى ل:[1] أسس ومبادئ العمارة الإسلامية. موقع «أرض الحضرات»، مقال لـ«محمد هشام النعسان». تاريخ الولوج.2012-04-30 :

١٥١. العمارة في العصر الأموي*. قراءة في كتاب «العمارة الأموية: الإنجازات والتآويل» (لـ«خالد السلطاني»)، في مقال لـ«آزاد أحمد علي». جريدة الاتحاد. تاريخ الولوج: ٣٠-٠٤-٢٠١٢[نسخة محفوظة]وصلة مكسورة 06 مارس ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.

١٥٢. دولة بني أمية. موقع «الحكواتي». تاريخ الولوج: ٠٣-٠٥-٢٠١٢.

١٥٣. عمارة القصور الاموية: البيئة المعمارية في بلاد الشام قبل الحكم الاموي. مقال لـ«خالد السلطان». تاريخ الولوج: ٠٢-٠٥-٢٠١٢.

١٥٤. العمارة في العصر الأموي الحلقة الأهم في مسار العمارة العربية ـ الإسلامية. مقال لـ«خالد السلطان»، في جريدة الشرق الأوسط. تاريخ الولوج: ٠٣-٠٥-٢٠١٢.

١٥٥. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٨٩-٩٧.

١٥٦. تعدى إلى الأعلى ل:[1] موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، ص٨٢. دار سفير، سنة ١٩٩٦.

١٥٧. موسوعة سفير للتاريخ الإسلاميّ، الجزء الثاني «العصر الأموي»، ص٨٢-٨٨. دار سفير، سنة ١٩٩٦.

١٥٨. الزراعة والتجارة في العصر الأموي. موقع قصة الإسلام، لراغب السرجاني. تاريخ النشر ٢٨-٠٤-٢٠١٠. تاريخ الولوج ٠٥-٠٥-٢٠١٢.

١٥٩. حوض البحر المتوسط: صراع تجاري بين بيزنطية والعرب. موقع الحكواتي. تاريخ الولوج ٠٥-٠٥-٢٠١٢.

١٦٠. الدولة الأموية وتحكيم الشريعة الإسلامية. موقع قصة الإسلام، لراغب السرجاني. تاريخ النشر ١٤-١٠-٢٠١٠. تاريخ الولوج ٠٥-٠٥-٢٠١٢.

١٦١. مؤسسة القضاء.. ابتكارها وتطويرها. موقع قصة الإسلام، لراغب السرجاني. تاريخ النشر ١٦-٠٥-٢٠١٠. تاريخ الولوج ٠٥-٠٥-٢٠١٢.

١٦٢. موسوعة سفير، المجلد الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٧٦.

١٦٣. موسوعة سفير، المجلد الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٧٦-٧٧.

١٦٤. موسوعة سفير، المجلد الثاني «العصر الأموي»، مرجع سابق، ص٦٩.

١٦٥. تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة1427 : هـ2006 - م، صفحة: ٣٠، بيروت - لبنانISBN 9953-18-084-9

١٦٦. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← عزيز الرحمن، سيّد (٢٠٠١ .(أخبار إسبانيا الإسلامية.ISBN 978-81-87570-57-8. صفحة ١٢٩ . Goodword Books.]توفي الأمير عبد الله في] السادس عشر من أكتوبر، سنة ٩١٢ بعد أن أمضى ٢٦ سنة من الحكم المغمور الشائن تاركًا المتجزءة والمُفلسة إلى حفيده عبد الرحمن. وفي اليوم التالي، جرت مراسم تتويج السلطان الجديد في «المجلس الكامل» في القصر.

١٦٧. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← المصور في التاريخ، الجزء التاسع. حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى. تأليف: شفيق جحا، بهيج عثمان، منير البعلبكي. الطبعة التاسعة عشر، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩ .دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. صفحة: ٣٥٥

١٦٨. الدولة العربية الإسلامية الأولى (١-٤١ هـ/ ٦٢٣-٦٦١ م). الطبعة الثالثة ١٩٩٥ م. دكتور عصام شبارو. دار النهضة العربية، بيروت – لبنان. صفحة: ٣٧٠

١٦٩. تعدى إلى الأعلى ل:١ ← المصور في التاريخ، الجزء التاسع. حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى. تأليف: شفيق جحا، بهيج عثمان، منير البعلبكي. الطبعة التاسعة عشر، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩ .دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. صفحة: ٣٦٦

١٧٠. Ochsenwald ، William (2004). The Middle East, A History. McGraw Hill. صفحة ٥٧٠-6-244233-07-0 ISBN .

١٧١. المصور في التاريخ، الجزء التاسع. حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى. تأليف: شفيق جحا، بهيج عثمان، منير البعلبكي. الطبعة التاسعة عشر، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩ .دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. صفحة: ٣٥٦
١٧٢. المصور في التاريخ، الجزء التاسع. حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى. تأليف: شفيق جحا، بهيج عثمان، منير البعلبكي. الطبعة التاسعة عشر، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩ .دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. صفحة: ٣٥٧

المراجع الاجنبية والمواقع الالكترونية

الموسوعة الحرة ويكبيديا

173. The Peoples, Sekene Mody Cissoko, **History of Humanity:From the Seventh to the Sixteenth Century**, Vol. IV, ed. M.A. Al-Bakhit, L. Bazin and S.M. Cissoko, (UNESCO, 2008), 1190.[1]

174. Jonathan Miran, Red Sea Citizens: Cosmopolitan Society and Cultural Change in Massawa, (Indiana University Press, 2009), 100.[2]

175. Khalid Yahya Blankinship, The End of the Jihad State: The Reign of Hisham Ibn 'Abd al-Malik and the Collapse of the Umayyads, (SUNY Press, 1994), 286."The+seven-year+occupation+of+Rhodes"&hl=en&sa=X&ei=vUW-UJXeLcTG0AHaqYHgDQ&ved=0CDAQ6AEwAA#v=onepage&q="The%20seven-year%20occupation%20of%20Rhodes"&f=false

176. Khalid Yahya Blankinship, The End of the Jihad State: The Reign of Hisham Ibn 'Abd al-Malik and the Collapse of the Umayyads, 147."the+victorious+governor+al-junayd+al-murri,+having+been+successful+in+conquering+gujarat+and+part+of+rajasthan"&hl=en&sa=X&ei=eJQaUvvVFdKx4AOcrIC4Ag&ved=0CDEQ6AEwAA#v=onepage&q="the%20victorious%20governor%20al-junayd%20al-murri,%20having%20been%20successful%20in%20conquering%20gujarat%20and%20part%20of%20rajasthan"&f=false

177. Stefan Goodwin, Africas Legacies Of Urbanization: Unfolding Saga of a Continent, (Rowman & Littlefield, 2006), 85.[3]

178. Islam in Somali History:Fact and Fiction, Mohamed Haji Muktar, **The Invention of Somalia**, ed. Ali Jimale Ahmed, (The Red Sea Press, Inc., 1995), 3.[4]

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول: الدولة والخلافة الأموية ٧

الفصل الثاني: خلفاء الدولة الأموية ٤١

الفصل الثالث: الدولة الأموية في الأندلس ١٦٣

المصادر والمراجع ١٨٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

د. حليم خليف الكاني

مختصر
تاريخ الدولة الأمويَّة

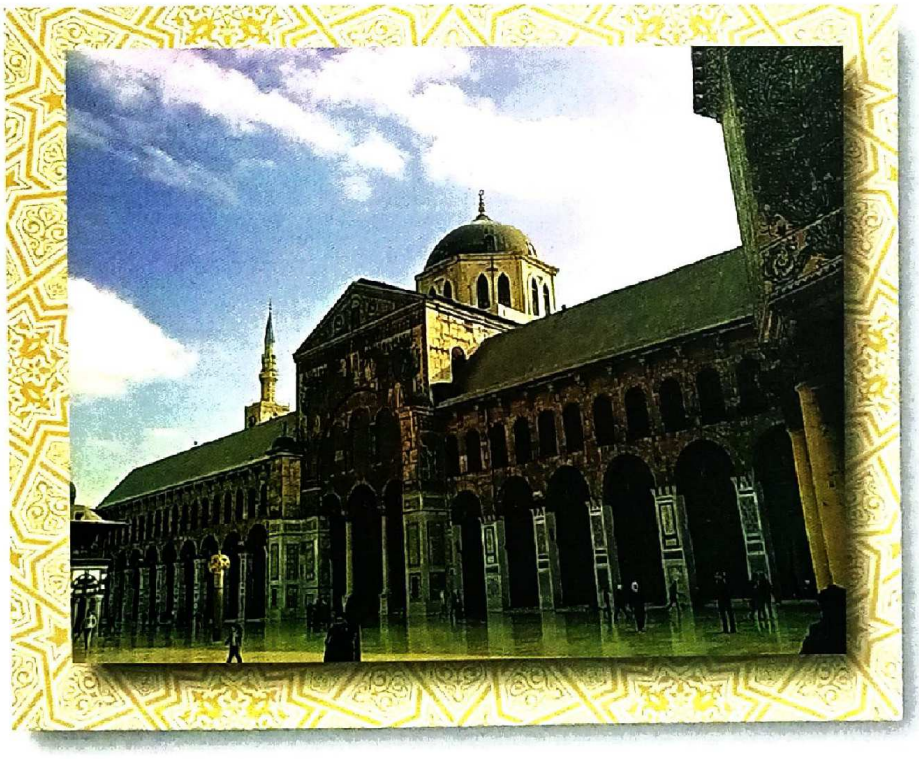

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS
عمّـان، شـارع الملكـة رانيـا،
عمارة البيجـاوي (69)، طابـق 3
نقال: 720 7162 79 962+
alaan.publish@gmail.com

9 789957 698461